البندقية والمَلَس

رواية

سهير عوض

عنوان الكتاب:
البندقية والملس

المؤلف : سهير عوض

تصميم الغلاف:
إكرام عيد

رقم الإيداع: :
٢٠٢٢/٣٦٨٦

الترقيم الدولي:
978-977-6971-0-35

مراجعة لغوية / د. مصطفى حسن

الناشر

دار الفراعنة للنشر والتوزيع والترجمة

رئيس مجلس الإدارة
إكرام عيد

المدير العام
أحمد عبد السميع

ا

لإدارة:
واتس:
(+2) ٠١٠٠٩٤١٤٤٩٧
alfra3ina@gmail.com

- ١ -

الشمس ترسل أشعتها الذهبية وتحتضن السماء قبل رحليها لحين يوم آخر يحمل بين ثناياه الكثير من أسرار البشر وهمومهم، وهو لا يئن ولا يفشي سراً، والشمس تأتي مهدهدة حيناً تبعث الدفء والأمل للبعض، ومهددة بلهيبها حيناً آخر لمن ينطوي صدره على حقد دفين يحرقه قبل أن يكوي من حوله، وما الحياة إلا أناس تحيا بصفاء قلب وسلامة نفس تعطي الآخرين أكثر مما تأخذ، وأناس لم يمس الحب قلوبهم فصار لا ينبض إلا بكراهية تأكله ويتطاير لهيبها على من حوله، وبين هؤلاء وهؤلاء أناس لا حول لهم ولا قوة لا تبغي إلا الأمان الذى تراه فى سقف يأويهم ولقمة عيش تسد رمقهم، هؤلاء هم أهل "قرية الصعايدة" التي تكمن في حضن الجبل بجنوب الصعيد تغطيها رماله الصفراء وتحرقها شمسها المتأججة دوماً ولا ملاذ لهم إلا هو، عندما تراه وهو جالس على أريكته الخشبية والشجرة تظلله بظلالها تقيه لهيب الشمس، وترطب الهواء بأوراقها قبل أن يعانق وجهه الملائكي رغم علامات السنين توقن حينها أن بينهما رباط ود يجري بأوراقها كما يسري بين ثنايا عمره، ولِمَ لا.. وقد غرسها بيديه فى طفولته أمام داره فكبرت ونمت معه حتى استوي عودهما سوياً، إنه الحاج محمد كبير عائلة الفوارس

أكبر عائلة بالعزبة ويرجع نسبها للأشراف لذا سميت العزبة بعزبة الفوارس.

كان الحاج يجلس كعادته على الأريكة يتمتم ببعض الآيات القرآنية حين آتاه ابنه فارس مهرولاً.

- ألحق يا حاج، حمدان الضبع رابط سليم الغلبان بجذع الشجرة فى غيط القصب ونازل فيه ضرب بسوطه.

- ليه؟

- بيقول إن ابنه الصغير سرق قصب من غيطه.

- لا حول ولا قوة إلا باللّٰه، زى جده فاكر الناس كلها عبيد عنده.

تحمل الحاج على ابنه حيث حمدان، ثم أمره بصوت به نبرة تهديد.

- فك الراجل يا حمدان وبكفي أرتبك وسقط السوط من يده، نظر إليه بغل، لكنه حاول المداهنة وقال بمسكنة:

- ما هو أنت ما يرضيك اللي حصل يا حاج.

- خلاص حقك عندي.

أعطاه الحاج ورقة بخمسين جنيهاً.. أخذها صاغراً ولم يتفوه بكلمة ؛ فلا أحد بالقرية يستطيع عصيان الحاج.

فك فارس سليم وسط حنك حمدان وسعادة وتهليل أهل القرية.

مال سليم على يد الحاج قبلها داعياً:

- ربنا يخليك للمظلومين ويطول عمرك ويبارك لك في فارس ؛ قادر يا كريم.

والناس تردد وراءه آمين.

انفض الجمع وعاد الحاج لداره وحمدان مكانه يحترق غيظاً عض على شفتيه ثم نفخ قائلاً:

- أمتي أخلص منك يا أبو الفوارس.

وصل الحاج بيته قابلته زوجته الحاجة حليمة، سمعت منه ما حدث فعقبت: ما هو حمدان شارب الظلم من جده وماشي على طريقه.

رد الحاج: - اللّٰه يرحم أبوه كان رجل صالح.

دخل فارس فى الحديث: - أهل البلد بيقولوا إن جد حمدان كان خاين، بيشتغل لحساب الإنجليز وثروته كلها من شغله معهم.

- كلام صحيح هو كان شيطان بيمشي على الأرض، وحمدان ماشي على طريقه خصوصاً بعد ما اشتري المأمور فسكت على كل أفعاله ولولا وقوفي قصداه كان عمل أكثر من كده ودي أمانة يا فارس فى رقبة الفوارس استلمتها من أبويا وآن الأوان أسلمها لك.

رد فارس: - ربنا يطول فى عمرك ويبارك لنا فيك.

تناولوا جميعاً العشاء فالحاج محمد لا يأكل إلا وحوله محمد وسيف وحبيبة أحفاده وفى هذه الليلة وضع حبيبة على حجره وأطعمها بيده رغم كبرها وبعد العشاء ذهبوا إلى فراشهم، وحكي لهم الجد حكاية من حكاياته الممتعة ثم تركهم وذهب لحجرته خلع عباءته وجلس على سريره قرأ بعض آيات الذكر الحكيم ثم راح في نوم عميق، أما في دوار حمدان فلم يذق أحد النوم فبمجرد دخوله أخذ يصرخ فيهم ويضرب كل من يقابله بالسوط حتى رأى ابنه سالم فنهره:

- كنت فين؟

رد بهدوء:

- كنت بذاكر، أنا في الليسانس وأريد أن أكون معيدا بكلية الحقوق.

ضحك بسخرية وقال:

- هى بلدك فيها حقوق، شايف فارس بيزرع أرضه وماشي مع أبوه زى ظله.

- فارس بيحب الزراعة درس كلية الزراعة لأجل ما يتفرغ للأرض لكن أنا بكرة أبقي محامي تفتخر به.

- أنا مش محتاج محامي ولا قوانين، أنا محتاج راجل قلبه ميت زى فارس فى عز الليل يمشي فى الغيط ما بيخاف ديابة ولا غيرها.

طأطأ رأسه وذهب إلى حجرته ليكمل مذاكرته كأنه لم يسمع شيئا فقد تعود على ذلك لكنه مصرا ألا يغير مسار حياته من أجل طموحات أبيه غير المشروعة كفاه حزناً أنه لا يملك حق الاعتراض وكثيراً ما فكر أن يتركه ويقيم بالقاهرة ثم يتراجع حتى ينتهي من الدراسة.

كان حمدان لا يزال غاضبا حين طرق بابه عطية شيخ خفره وهو لا يختلف عنه في الظلم والقسوة لذا هو اليد المنفذة لأعماله وكاتم أسراره، دار بينهما حديث هامس لم يُسمع منه إلا عطية يقول:

- يا داهية سودة هو أنا أد فارس.

جلس حمدان بعد انصراف عطية يشرب الشيشة ويبرم شنبه ثم ضحك ضحكة شريرة رجت أركان حجرته وقال:

- يا أنا يا أنت يا حاج ؛ نهاية الفوارس على أيدي.

استيقظ الحاج من نومه مردداً "أعوذ باللّٰه من الشيطان".

استيقظت زوجته على صوته، راعها وجهه الأصفر.. أرادت أن تنادى على فارس طمأنها:

- أنا بخير لا تقلقي، حلم ضايقني وربنا الحافظ.

عادت لنومها وقام هو توضأ وصلي ودعا ربه:

- يا رب اكفي ولدي فارس شر حمدان واجعلني فداه، أنا تعبت وهو يقدر يكمل طريقي.

تساقطت دموعه على سجادة الصلاة مع أذان الفجر ؛ أكمل دعائه ثم صلي الفجر ونام مكانه.

ومع أول تباشير الصباح جلس بالمندرة حتى أعدت زوجته الإفطار، جلس يسامرهم أثناء الإفطار ثم ذهب بعدها فارس للأرض.. وجلس أبوه يرتل القرآن والحمام يحوم حوله كأنه يرتل معه.

-٢-

الساعة الثامنة صباحاً بنادي الجزيرة فى القاهرة كانت فريدة على الفرس الخاص بها تُجرى التدريب النهائي قبل سباق البطولة السنوي، فريدة لا تُجيد ركوب الخيل فقط، بل أيضاً الرماية ولا يستطيع أن يفوقها أحد، وكيف لا وقد حملت بندقية والدها وهي بنت سبع سنين وأصرت أن تتعلم كيف تطلق النار فلبي لها أخوها الحاج محمد طلبها وأدرك أن فريدة الفوارس لن تكون فتاة عادية.

اجتازت كل الحواجز بمهارة فصفق لها الكابتن علاء وبعض الهواة الذين يحضرون ليستمتعوا بأداء الفرسان.

نزلت من على الحصان وأعطته بعض قطع السكر، ومسحت على ظهره ثم أخذه السايس.

قال الكابتن علاء:

- برافو يا فريدة ؛لو حصلتِ على المركز الأول ستكون المرة الخامسة على التوالي ولن يستطيع أحد أن يركب خيل معك ولا حتى يكلمك.

ضحكت قائلة:

- قول إن شاء اللّٰه.

- فريدة أوعديني بعد السباق تفكري.

- يا كابتن أنا قلت لك أنا لا أفكر فى الموضوع نهائياً.

- هو فيه بنت لا تفكر فى الزواج.

ابتسمت ابتسامة باهتة وقالت:

- أنا.. سلام.

عادت إلى فيلتها بالمهندسين وقد كتبت عليها "فيلا الفوارس".

استقبلتها مدام كوثر بترحاب، صعدت فريدة لغرفتها، أخذت دش دافئ ثم آوت إلى الفراش مستسلمة للنوم لتنال قسطاً من الراحة قبل ذهابها لشركتها ٫فيومها يمضي بين العمل والنادي وليس لها صديقات إلا راوية مدرسة اللغة الإنجليزية وزوجة الأستاذ بكري المحاسب القانوني للشركة، استيقظت من نومها على رنين التليفون.

- ألو..

- وحشتيني يا فريدة كيف حالك.

- الحمد للّٰه أنتم وحشتوني كلكم كيف حالكم يا حاج.

- كلنا بخير.

- نفسي تملأوا عليَّ الفيلا.

- يا فريدة الفيلا لازم تعمر بولادك، كان نفسي أري ولادك قبل موتي، لكن لا علم لي بما يدور برأسك.

- ولا حاجة يا حاج، النصيب لم يحكم بعد.

- اعتني بنفسك.

- لا تخاف عليّ أنا بنت الفوارس.

- لا إله إلا اللّٰه.

- محمد رسول اللّٰه.

ذهبت فريدة بعدها للشركة وبمجرد وصولها جري الموظفون هنا وهناك فالكل يهابها، قابلت موظفة تسرف فى المكياج وتتمايل فى خطواتها، أوقفتها وسألتها:

- ما أسمك؟

الفتاة بدلع:

- اسمي رشا.

- فى أي قسم.

- قسم الحسابات.

- الحمد للّه يعنى ليس فى السينما، لبسك ومشيتك تستعمليهم بالسينما، خصم خمسة أيام والمرة القادمة سأفصلك.

أسرعت الفتاة خطاها إلى المكتب متذمرة وهي تبرطم:

- يا ساتر ه امرأة ولا شيخ خفر ، أو يمكن تكون معقدة.

جلست إلى مكتبها وجاء الأستاذ بكري ومعه أوراق آخر صفقة وقعت عليها ثم قالت:

- لا تتأخر أنت وراوية عن السباق غداً.

- أكيد طبعاً بالتوفيق إن شاء اللّه.

عادت لمنزلها وهي تشعر أن قلبها مقبوض ولا تدري لِمَ.. حدثت نفسها:

- يا تري أنا خايفة من السباق أم هناك شيئا آخر.. أنا قلقانة على الحاج سنه كبر وحمدان لا يهمد وليس هناك غير فارس، أهل البلد الخوف قتلهم من سنين، ماذا لو كان ترك البلد وعاش معي، لكن طبعاً هذا مستحيل، يعنى يتخلي عن أهل البلد، لن يقدر.

نظرت لنفسها فى المرآة وقالت:

- يعنى أنتِ ارتحتي يا فريدة عندما بعدتي عن البلد وناسها؟

- تنهدت تنهيدة كلها ألم ثم ذهبت لفراشها محاولة أن تنام، لكن أبت الذكريات أن تدعها فتوالت أمام عينها فها هي آتية بنت عشر سنين حين أصرت خالتها أن تصحبها للعيش معها بالقاهرة فالعزبة لم تعد آمنة بعد ما حدث بين عائلة الفوارس وعائلة الضبع، وافق الحاج على القرار حرصاً على حياتها، لم تنس دموعها يوم ذهابها وتعلقها بثياب الحاجة حليمة حتى أخذتها خالتها وركبت السيارة فانطلقت بهم وفريدة تنظر للأرض والأشجار على الجانبين والتى تحمل بين أغصانها ذكريات طفولتها هنا جرت وهنا اختبأت وها هنا تعلمت كيف تحمل البندقية وتصطاد العصافير، مرت السنون بطيئة ثقيلة نسجت فيها حياتها الخاصة ما بين الدارسة والقراءة والنادي ولم تنس حبها للأرض فكانت دراستها كلية الزراعة، حصلت على البكالوريوس ثم

الماجستير ثم الدكتوراه، وكانت أصغر فتاة تحصل على الدكتوراه حينها، وكانت الرسالة عن سماد جديد للأرض الصحراوية قريب من تركيبة طمي النيل تزرع به الفواكه والخضروات فاشترت أرض بالصحراء وأخذت مجموعة من الشباب المتحمس وقاموا باستصلاح الأرض وزراعتها وبعد نجاح التجربة أنشأت شركة الفوارس لتصدير الخضر والفواكه، وصارت من أكبر الشركات، ولم تزر فريدة العزبة منذ صغرها نزولاً لرغبة أخيها خوفاً عليها من حمدان.

-٣-

فى المساء كان الحاج يجلس بالمندرة حين رأى فارس يحمل بندقيته ويهم بالخروج، سأله:

- يا بني إلي أين؟

- نويت السهر بالغيط القبلي لأرويه.

- بلاش أنت ' أنا قلبي مش مطمئن.

- سلمها للّه يا حاج، ابنك أسد.

- ونعمة باللّه له الأمر وحده.

انطلق فارس للغيط حيث الظلام مطبق، وليس هناك إلا صفير الرياح ونقيق الضفادع وصرير صرصور الغيط، جلس يسبح للّه ولم يهتز له جانب حتى عندما سمع عواء الديابة ناحية الجبل القريب من الغيط، وبينما هو غارقاً ففي تأملاته سمع صوت أقدام وسط الذرة، قال بصوته الجهوري:

- من هناك؟

لم يرد القادم وارتعدت فرائصه من صوت فارس.

عاود فارس.

- رد أحسن أضرب فى المليان.

أدرك الرجل أنه لا محالة مقتول، جرى وسط الذرة لمحه فارس فأطلق عيار فى الهواء ليخيفه، ثم سمع عيار آخر فتخيل أن الرجل يطلق عليه النار لكنه سمع صرخة مدوية وبعدها عاد الصمت كما كان.

أسرع حيث الصوت وجد رجل يدعى "عطوة" قتيلاً، بهتته المفاجأة، من أطلق العيار الآخر الذي قتل عطوة ؟!

عجز عن التفكير ؛ حمل عطوة ووضعه على حصانه وأنطلق إلى داره، طرق الباب بشده ؛ قام الحاج مفزوعاً من مكانه وهو يردد:

- اللهم أجعله خير.

فتح الخادم "حسن" الباب ثم صرخ:

- الحق يا حاج، قتيل مع سي فارس.

جاء الرجل متكئا على عكازه نظر إليه وقال باستغراب:

- عطوة من قتله؟! ولماذا كان بأرضنا؟ رد يا فارس.

حكى فارس له ما حدث.

قال الحاج:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، يعنى أنت قتلته خطأ.

فارس بإصرار:

- لا يا حاج، أنا لقيته مقتول، عياري كان في الهواء.

- الأمر لله، تذهب لزوجته وتعرض عليها الدية، وسنتكفل بجنازته وربنا يعديها على خير وحمدان مي ولعش فيها النار، أنا متأكد إنها عملته، لكن أين الدليل.

ذهب فارس لزوجة عطوة، لطمت خدها وهرولت إلى دار حمدان تصرخ.

- عطوة أتقتل.

تظاهر حمدان بالاستغراب والأسى ثم أسرع فى تنفيذ باقي خطته حيث أرسل إلى الحاج محمد ليحضر إليهم بعد صلاة العشاء، وعندما حضر كان هناك جمع غفير من عائلة الضبع ولم يكن من الفوارس إلا الحاج محمد وفارس وسلمان المسؤول عن جنائن الفوارس.. حكي فارس ما حدث، ثار حمدان وأنكر رواية فارس وأصر أنه قتله عمداً.

رد الحاج محمد:

- ابني لم يقتل أحدا، هذه لعبة كبيرة يا عيلة الضبع لأجل ما الدم يجري بينا بحور مرة آخري.

رد حمدان بغطرسة:

- أنت لك عين تتكلم، انظر ابنك فاكر ألن يقدر عليه أحد.

هم سلمان أن يفتك بحمدان لولا أن فارس امسكه.. غاص حمدان في جلبابه من الرعب وسلمان يقول:

- لما تتكلم عن فارس كبير العزبة تحترم نفسك، كلكم عارفين إن الفوارس أيدهم نظيفة والغدر لا يعرف طريقا إليهم، ولو كانوا غرضهم القتل كانوا قتلوك أنت وليس واحد غلبان كان من خفرك ورميته لما مرض، وأنت عارف هو كان عايش من خير مين.

أشار الحاج محمد لسلمان فسكت، ثم قال هو لحمدان:

- أوعاك تجيب سيرة ابني على لسانك، هو برئ من دمكم، أنت أدري من قتله.

ارتبك حمدان وسأله:

- ماذا تقصد؟

لم يهتز الحاج فارس على يمينه وسلمان على شماله.

وقال: قصدي تعرفه جيدا، اتقي ربنا يا حمدان وافتكر إن فيه يوم حساب.

حمدان متظاهراً بالقوة:

- نحن لا ضعاف ولا فقراء ولن نقبل الدية، حقنا نأخذه بأيدينا، ولا لكم رأي آخر يا رجالة.

كل من كان بالمندرة في صوت واحد: -

لا طبعا يا سيدنا.

الحاج محمد يردد:

- لله الأمر من قبل ومن بعد.

بقي حمدان فى داره مزهواً بنفسه كالطاووس يتحدث بعنجهية وغل:

- طول عمرهم طالعين السماء بنسبهم للأشراف، الدنيا أتغيرت، الناس الآن تقدر بما معها من أموال.

تهامس رجلان:

- الراجل أتجنن، عايز يعمل رأسه برأس الفوارس، ها يفتح علينا طاقة جهنم.

سأله أحدهم:

- ماذا تنوى سيدنا؟

هو بغرور:

- نقتل الحاج محمد.

تعالت الأصوات رافضة، ولوحت الرجال بأيديها معترضة.

زمجر حمدان:

- أصلكم حريم ناقصكم الترح، لنا ثأر قديم وثأر جديد لم يبرد دمه.

رد رجل كبير السن يُدعى "الحاج قناوي الضبع":

- الثأر القديم اصطلحنا وأخذنا الدية، وليس معقول تأخذ الحاج محمد بدم عطوة الخفير، ولا أنت ولا عيلتك أد عيلة الفوارس، وهل نسيت الحكومة، الراجل كان بيسرق من أرضهم، يعنى فارس كان بيدافع عن نفسه.

حمدان بصفاقة:

- أما أنك رجل جبان.

غضب الجمع من حمدان.. وقام الحاج قناوي ليخرج فتبعه أكثر الموجودين وقبل خروجه حذرهم.

- لو أتقتل الحاج محمد دمه هيصير خراب على عيلة الضبع، اللهم بلغت، اللهم فاشهد.

جلس حمدان بعد انصرافهم يرتب خطته، فأمام دار الحاج محمد دوار مهجور كان فيما مضى يملكه عمدة العزبة.. وقد كان خائناً باع الفدائيين للإنجليز فتجمع أهل العزبة وقتلوه فى داره ورفضوا أن يدفنوه، فما كان من الإنجليز إلا أن رموه بالجبل وهدموا الدار، ومن حينها وأهل العزبة يتشاءمون من الدار، فلم يقترب منها أحد.

برم شنبه وقال لعطي:

- أتحلت يا واد البندقية في أيدك والدار فاضيه.

صرخ عطية:

- يا نهار أسود ومهبب، أنا أقتل الحاج محمد، حرام عليك دا أنا طول عمري خدامك، لو عملتها عيلة الفوارس يقطعوني ويرموني للدياب.

- أين عيلة الفوارس، الحرمة في مصر ولا نعرف عنها حاجة، ومهما كان اسمها حرمة، يعنى فارس لوحده.

_هو فارس شوية وأنت ناسي سلمان ما هو فى ضهره.

غير حمدان لهجته وقال:

- هى حاجة من الاثنين، إما تقتل الحاج محمد أو أبلغ المأمور أنك قتلت عطوة وسرقت بهيمة عُشر من زريبتي، والشهود موجودة.

عطية وهو يرتعد:

- حرام عليك ومن يربي عيالي؟

ضحك حمدان وقال:

- أنا أربيهم أحسن منك.

ذهب عطية لداره مهموماً فأدركت زوجته روحية أن هناك أمراً ما، ألحت عليه حتى أخبرها، ضربت على صدرها بيدها وصرخت:

- يا خرابي، يا مصيبتي، الحاج محمد التقي، دمه الطاهر يبقي في رقبتك، ألا يكفيكم قتل عطوة.

قال عطية:

- أنا عبد المأمور.

زوجته بغضب:

- لا يا عطية، أنت عبد اللّٰه، حمدان سيخسرك دنيا وآخرة لو عملتها، عمر حالك ما ينصلح.

_ولو ما نفذت أوامر حمدان هاروحِفي داهية، ربنا غفور رحيم.

صرخة فى وجهه:

- يا ظالم أنت وحمدان، تقتل وتقول ربنا غفور رحيم، ربنا منتقم جبار، لو عملتها ها سيب لك البلد كلها وأربي ولادي بالحلال بعيد عن

الدم، أنا صبرت عليك كثير ولولا إنك ابن عمي كنت بلغت عنك لكن لكل ظالم نهاية.

تركته ودخلت على أولادها صلاح وحسان وحامد وهي تبكي نظروا إليها بحزن وهم لا يعرفون سبب لبكائها، فهي تحرص ألا تخبرهم بشئ حتى لا يكرهونه، وقبل الفجر عندما رأته يُعمر بندقيته أدركت أنه مصر على فعلته، جمعت ملابسها وقررت الذهاب عند خالتها بالقاهرة لتبتعد عن هذه القرية المشئومة.

بدأ الفجر ينسج خيوطه التي أحاطتها بعض السحب الداكنة وكأنها تأبي للضياء أن يولد، وخرجت الشمس على غير عادتها بلا أشعة تبعث الدفء ليس لها إلا قرصها الذى بدا كأنه يمور بنيران ستحرق ما حولها وضباب كثيف جعل الذاهب إلى الحقل لا يري موضع قدميه وتقاعس البعض متشائماً أن اليوم يحمل هاجس شر فأغلقوا عليهم دارهم مؤثرين السلامة.

وفى طرقات العزبة بين البيوت المتهالكة التى أكلها الفقر وقهرها الخوف كان درويش العبيط يجري بين الطرقات وفى يده عصاه الصغيرة ينقر بها على الأبواب المغلقة ويصرخ:

- أصحوا يا بلد الضبع هيقتل الأسد، بكرة يأكلكم نفر.. نفر، هيروح من يِحميكم، وأنتم رؤوسكم مدفونة فى الطين.. أصحوا يا بلد.

أقترب درويش من دار الفوارس، وقف على مقربة من الشجرة، تساقطت دمعتان من عينيه، رفع أصابعه الخشنة من الفقر والبرد ومسح عينيه وقال:

- يا ريتني كنت أقدر أفديك.

داخل دار الفوارس أغتسل الحاج محمد وارتدي عباءته البيضاء.. استغربت زوجته فهو لا يرتديها إلا فى صلاة العيد، أيقظ أهل بيته وصلي بهم الفجر جماعة.

بكت زوجته قائلة:

- لازم تقولي فيه أيه، قمت من النوم مضايق ومخنوق وقلت شوفت حلم إيه هو الحلم وليه لبست العباية البيضا، خصيمك النبي لو ما قلت لي.

- يا حاجة أين إيمانك بالله، أنا رأيت فارس في حجرة مظلمة مادد أيده وأنا في السماء غير قادر علي مساعدته.

أيقنت الحاجة أنه يودعهم فبكت وأمسكت بسبحتها تذكر اللهّ.. فى حين جلس الحاج يقرأ القرآن وصوته الرخيم يتردد فى أرجاء داره والكل ينصت له، وكأن الملائكة تحلق من حوله.. تناولوا جميعاً الإفطار بعد انتهاء الحاج من ورده طلب من فارس أن يصحبه لأريكته تحت الشجرة، وضع يده على كتفه وقال:

- اسمعني يا فارس "لكل أجل كتاب" لكن هى أسباب، إياك وغواية الشيطان وابعد عن طريق حمدان، خلى بالك من أمك وكمان ولادك لازم يكملوا تعليمهم محمد يدخل الحقوق وسيف يدخل الشرطة وحبيبة تدخل الطب إن شاء اللهّ، وأوعي تنسي عمتك فريدة وسلمان راجل لن يتخلى عنك وربنا فوق الكل.

مال فارس على يده قبلها وقال:

- أنت الخير والبركة.

فى نفس الوقت كان عطية فى البيت المهجور وبندقيته مصوبة ناحية الحاج، لمحه الحاج بعينيه فأبعد فارس بيده وقال:

- "إنا للهّ وإنا إليه راجعون".

انطلقت الرصاصة واستقرت فى صدر الحاج، اكتسي الجلباب الأبيض بالدم الطاهر وجاءت عاصفة شديدة اهتزت لها أوراق الشجرة وعلا حفيفها كأنها تولول لفقد الحاج الذي ما تخلف يوماً عن الجلوس تحتها.

صرخ فارس صرخة اهتزت لها أرجاء العزبة وهو يتلقى أباه على صدره، خرجت أمه على صرخته تولول.

- أنا فداك يا حاج، عملوها الكلاب، لك يوم يا ظالم حسبي اللّه ونعم الوكيل.

ألتف أهل العزبة حول فارس، ولا يزال والده على صدره تختلط دمائه بدموع فارس، هرول سليم الغلبان حافياً باكياً، جث على ركبتيه، قبل جبينه وقال:

- يا ليتني كنت مكانك، ربنا على المفتري.

سري الخبر فى العزبة سريان النار فى الهشيم، دخلت عائلات الضبع بيوتهم وأغلقوها عليهم خوفاً مما سيأتي، إلا الحاج قناوي عندما سمع بالخبر ضرب كفاً بكف وهرول وهو يردد:

- "إنا للّه وإنا إليه راجعون".. عملها الملعون.

أما زوجة عطية فعندما سمعت بالخبر أسرعت إلى القطار المتجه إلى القاهرة، أما سالم فقد أسرع إلى أبيه يسأله:

- أنت قتلت الحاج محمد؟

رد:- أخرس قطع لسانك، أنا صحيت من النوم على الخبر الشؤم.

قال سالم بأسي:

- ومن أمتي وأنت بتقتل بأيدك؟

- تقصد أيه؟ ها تبلغ عنى يا جبان؟

- يا ريت كنت أقدر، أنا هاسيبلك البلد خالص، أنا زهقت من الدم والظلم.

أبوه بمسكنة:

- ومن يورث الأطيان والأموال من بعدي؟!

- الطين معجون بدم الأبرياء والأموال من لحم الغلابة والمساكين.

جرى سالم ودموعه تغسل قدميه، نظر من بعيد إلى فارس ولا يزال أبيه فى حضنه وقد اكتسي الثوب الأبيض بالدم والدموع، والحاجة حليمة

جاثية على الأرض تحثو التراب الذي اختلط بدماء الحاج على رأسها، لم يستطع تحمل ما جرى فألقي بنفسه فى القطار الذى ركبته زوجة عطية.

بعد ساعات حضر المأمور.. وسأل فارس:

- أنت شفت اللى ضرب النار؟

- لا..

- تتهم من؟

- لا أحد، ليس لنا أعداء

- من فضلك ساعدني، حتى يأخذ القانون مجراه.

نظر إليه فارس والشر يتطاير من عينيه، فهو يدرك أن العزبة كلها وليس المأمور فقط يعلمون أن حمدان هو من فعلها لكن من أين يأتي له فارس بالدليل.

اجتمع أهل قرية الصعايدة والقرى المجاورة لحضور الجنازة وكان من بين الحاضرين الحاج قناوي الذي كاد سلمان أن يفتك به لولا فارس الذي منعه لأنه شعر بصدقه وهو يقول:

- والله يا ابني أنا برئ من دم الحاج وربنا عالم.

انفض الجمع بعد الدفن مباشرة بدون عزاء حتى يأخذوا ثأرهم إلا فارس فقد ظل يقرأ القرآن وقطرات دموعه تتساقط على المصحف حتى أرخي الليل ستائره، فأتي إليه سلمان وأصطحبه إلى الدار، رأي أولاده فى حضن أمهم "هنية" يبكون بحرقه فراق جدهم، ذهب حيث والدته وجدها جالسة على سجادة الصلاة ذاهلة، شاخصة البصر وعيناها تنظران إلى السرير، قبل رأسها ويديها ورجاها أن تنام، رفضت قائلة:

- ومنين يجئ النوم بعد فراقه، لن يلمس أحد سريره بعده

عاد لحجرته فأرهقه أبناءه بالأسئلة.

- من قتل جدهم؟ أهو حمدان، وإن كان هو لِمَ تركه المأمور ولم يقبض عليه؟

قال سيف بانفعال:

- حمدان بيكره جدي، أكيد هو من قتله، ليه يا بابا ما قتلت حمدان.

لم يرد عليهم، فقامت هنية بأخذهم إلى حجرتهم ليناموا بعد إقناعهم أن والدهم مرهق محتاج ينام.

جلس فارس وحيداً فتوالت الذكريات على رأسه وسلبت من عينيه النوم.

فها هو صغير يتعثر فى مشيته فيحمله على كتفه، ثم يستوى عوده فيصطحبه معه للغيط ويعلمه قراءة القرآن، ثم يشتد فتوة فيعلمه ركوب الخيل وحمل البندقية ويرشده ألا يستعملها إلا فى الخير، كل هذا بدون أن يهمل دراسته حتى أتم الشهادة الثانوية فلم يشأ أن يدخل الجامعة ليساعده فى رعاية الأرض فرفض الحاج وأتم فارس دراسته الجامعية، وبعدها يقرر أن يزوجه، وها هو يرقص أمامه يوم زفافه – فقد كان لا يضاهيه أحد فى الرقص بالعصا – ثم يرزقه اللّٰه بمحمد أول حفيد له فيحمله مسروراً ويؤذن ويكبر فى أذنيه ويذبح عجلين ويُقيم عقيقة يطعم فيها أهل العزبة كلهم، ثم آتي سيف ففعل مثل ما فعل يوم ميلاد محمد، أما حبيبة فقد أقام لها عرس يومين كاملين وذبح ثلاثة عجول، ثم يصر بعد دخولهم المدرسة على تعليمهم الجامعي ويوصيه دوماً بذلك خصوصاً حبيبة تكون دكتورة ليُقيم لها مستشفى خاص كبير يخدم أهل العزبة.

عصر الألم قلبه حين تذكره وهو يرفض أخذ إيراد الأرض ويوصيه بإخراج الزكاة ثم الاحتفاظ بالباقي ليدع كل شئ بيديه.. ولم ينس يوم أصابته الحمي فأحضر له طبيباً من القاهرة قام على علاجه وبعد شفائه ذبح عجلاً وأقام ليلة لأهل اللّٰه، توالت الذكريات حتى لحظة الوفاة، ارتج صدره من النحيب فأتاه صوته:

- أوعي تبكي، أنا شهيد قوم أتوضأ وصلي وعينك أمك وأولادك.. ثم اختفي الصوت

تلفت حوله ثم نادى عليه:

- أنا محتاجك ؛ليه تركتني؟

استغفر ربه ثم صلي ركعتين، وجلس يقرأ القرآن حتى غلبه النوم وفى منامه رآه وجهه كالبدر يجلس على أريكة من حرير تحت شجرته التى صارت أوراقها من فضة وسيقانها من ذهب ويشع منها نور لم تقو عيناه على تحمله.

استيقظ فارس من حلمه على آذان الفجر، وجد والدته على سجادة الصلاة فحكي لها رؤيته، بكت وقالت:

- ربنا يجمعني به فى الجنة.

قال فارس:

- ربنا يطول في عمرك يا حاجة.

- البركة فيك يا بني المهم لازم تتصل بعمتك دكتورة فريدة وتعرفها ؛أبوك كان حالف عليها ما تدخل البلد، خائف من حمدان عليها

وعمتك شديدة كانت تلوم على أبيك إنه عارف إن حمدان ظالم وتاركه، دمها حامي دوما تقول إن حمدان وأمثاله لازم نخلص البلد منهم لكن أبوك الله يرحمه كان يقول لا أريد دم ، وكان يحاول يمنعه عن أهل البلد على قدر طاقته.

- قال فارس:

- الله يرحمه، وربنا يتولي العزبة من بعده.

-٤-

حمدان يبدو عليه الخوف والعصبية فى كل تصرفاته وكذلك عطية لم ينم ليلته وفى الصباح هرول إلى دار حمدان يرجوه أن يخفيه خوفاً من بطش الفوارس، ضحك حمدان وطمأنه:

- يا غبي فارس ملهوش فى القتل وعمته فريدة مصراوية وبيقولوا دكتورة يعني مفيش خوف منها.

رد عطية:

- لا.. دى عفية شديدة حتى الجرايد بتقول عنها مفيش زيها فى ركوب الخيل وضرب النار.

واصل حمدان ضحكه وقال:

- كلام جرائد، أنا مش فاضي، أنا مستعجل عايز أضم أرض الست نفيسة لأرضي ضهرها خلاص مات.

تمتم عطية فى سره:

- أعوذ بالله منك هو أنت ما بتتنهد.

الست نفيسة هذه امرأة طاعنة فى السن لكن صلبة قوية لا تخشي حمدان، تزرع أرضها هى وأحفادها بعد أن مات ولدها الوحيد وزوجته فى حادث سيارة على الطريق الزراعي.. أراد حمدان أن يضم أرضها لأملاكه فرفضت واستعانت بالحاج محمد فجعلها فى حمايته ومن يومها لم يستطع الاقتراب منها أما الآن فقد ذهب إليها مهدداً:

- اللي كنت تتحامي فيه خلاص مات.

ردت:

- ربنا ينتقم من اللى قتله، أنا قتيلة أرضي يا حمدان.

حمدان بغضب:

- أدامك يومين وبعدها أنتِ حرة.

- ستقتلني يا حمدان؟!

- لا يا نفيسة لكن ذنب أحفادك فى رقبتك.

ضمتهم لصدرها وقالت:

- ربنا على الظالم، منك لله.

انصرف حمدان وأسرعت هى إلى دار الفوارس تستغيث بفارس وأخبرته بما حدث، طمأنها فارس وركب فرسه وانطلق حيث أرض حمدان.. وعندما وجده أخذ لف بفرسه حوله وحمدان مذعوراً كالفأر.. ثم قال له:

- الخالة نفيسة فى حمايتي، حرمة أرضها من حرمة أرضي.

تعجب عطية من قوة فارس وألمه لم يجف بعد ومن جبن سيده.

لم يستطع حمدان أن يرد وبعد انصراف فارس أخذ يفرك يديه فى بعضها ويضرب الأرض بقدمه وعطية ينظر إليه متعجباً من ضعفه وقد اقتنع تماماً أن هذا الرجل لا يصلح لسيادة العزبة، بل حتى داره.

صار الناس فى العزبة نهارهم كليلهم، ألجمهم الذعر والخوف مما هو آت، فقد فقدوا السماء التى كانت تظلهم بحمايتها ورعايتها، وعائلة الضبع يخشون الثأر والانتقام الذي لا محالة قادم ليشعل الأرض من حولهم وهو قريب غير بعيد.

-٥-

ذهبت فريدة إلى مشروعها فى طريق مصر إسكندرية الصحراوي وذلك لحضور اللقاء الشهري الذى تعقده مع الشباب بالأرض تستمع إلى مشاكلهم وذلك فى أول جمعة من كل شهر، تحضر معهم صلاة الجمعة فى مسجدها الذى كان أول ما بنته فى المشروع ثم ألحقت به حضانة ومستشفى وبعد أن تزوج الشباب وصار لهم أبناء بنت مدرسة متكاملة لتتبني الأبناء من الابتدائي حتى الثانوي فصار المشروع مدينة متكاملة حتى السوق التجاري لم تنسه فأنشأت مول تجاري تجد الأسرة فيه كل ما تحتاج إليه، وقبل الدخول إلى مدينة الأمل كما أطلقت عليها تجد لافتات مكتوب عليها [مدينة الأمل] وسهم يشير إلى ما تبقي من المسافة حتى الوصول إليها.

جلست إليهم فبدأ الحديث مهندس زراعي (المهندس خيرت) وهو المسؤول الأول عن المدينة وأخبرها أن آخر دفعة تصدير قد خرجت بالأمس وأن مصانع الفوارس ستستلم احتياجاتها طوال الأسبوع القادم وليس هناك أي مشاكل سوى أن المستشفى تحتاج إلى بعض الأجهزة والأدوية.. كلفت فريدة الأستاذ عمر بتوفير ما يحتاجونه.

بعدها تحدثت نوارة مهندسة كمبيوتر تعمل بالمدينة هى وزوجها المهندس أمجد وكان الأول على دفعته رفض تعيينه بالجامعة وفضل البناء والتعمير بالصحراء ووافقت نوارة أن ترافقه في هذا الطريق وذهبت معه إلى مدينة الأمل، طرحت نوارة بعض الأفكار على فريدة قالت:

- حضرتك عارفة العالم أصبح نافذة مفتوحة ولازم الشباب هنا يتواصل مع العالم ويعيش مشاكله ويتعلم كيف يواجه المشاكل ويشارك برأيه.

وافقت فريدة قائلة:

- تمام نعمل مركز اتصالات على أحدث مستوى ونبدأ دورات مكثفة للشباب وأنت المسئولة عن ذلك ولكِ ميزانية مفتوحة ولو احتاجتي مهندسين معاكِ ننزل إعلان فى الجرايد.

انتهي الاجتماع وقبل انصرافها أوصت المهندس خيرت بإعطاء مكافأة نصف شهر لكل العاملين.

وفى طريق عودتها اعترض الأستاذ عمر على استجابتها لنوارة فيما طلبت وقال:

- نوارة ناشطة سياسية أثناء دراستها بالجامعة استدعتها إدارة الجماعة أكثر من مرة بسبب آرائها وأنشأت جروب على الفيس تنشر أفكارها من خلاله وأنضم إليه الكثير من الشباب وأنه يخشى أن تستمر في ذلك أثناء تواجدها بالمدينة وليس مستبعد أن تؤثر على الشباب بالمدينة ونفاجئ بأن المدينة صارت خلية أمنية مستهدفة من النظام.

ضحكت فريدة وقالت:

- إلى متي يا عمر ستظل تمشي جنب الحيط تتلفت حولك وتخاف من كل شيء، يا ريث نوارة تعملها أنا عن نفسي اشجعها.

عادت فريدة إلى الفيلا بعد يوم منهك من العمل وقبل أن تذهب لفراشها رن جرس التليفون أحست يغصه في قلبها وكأن خنجر رشق به، استعاذت من الشيطان واقنعت نفسها أنه من آثر مجهود اليوم، عاود التليفون رنينه، أسرعت إليه.

- ألو..

استجمع فارس قواه وقال:

- كيف حالك يا عمه؟

- فارس عاش من سمع صوتك ليس عادتك تتصل متأخر، أين الحاج؟

سكت فارس.

أعادت عليه السؤال، رد بصوت كله شجن.

- البقية فى حياتك يا عمة.

صرخة فريدة صرخة مدوية ووقعت منها السماعة، حاولت التماسك، سألته:

- حصل أمتي؟ كان عيان، ولماذا لم تتصل بي.

انهمرت دموعه ورد:

- حقك عليّ الظروف كانت أقوى مني.

- كلامك فيه حاجة، أبوك أتقتل يا فارس.. رد عليّ.

- أيوه..

أغلقت السماعة وهي في حالة انهيار، انهمرت دموعها غزيرة وهى فى فراشها، تذكرت وجهه الهادئ الملائكي، قامت من فراشها.. وقالت:

- أقسم بالله لو مئة قتلوك يا حاج لأقتلهم بأيدي.

نادت على مديرة منزلها "كوثر" وطلبت منها تتصل بالأستاذ بكري ليحضر حالاً إلى الفيلاً ثم ذهبت إلى دولابها أخرجت شئ ملفوف بدقة ثم أخرجت الملس الأسود، وضعت اللفافة تحت الملس فى الشنطة ثم وضعت بعض الملابس الأخرى وبعد ساعة طرقت كوثر باب حجرتها وأخبرتها أن الأستاذ بكري فى الصالون تماسكت ومسحت دموعها ثم خرجت للأستاذ بكري قالت:

- أنا مسافرة البلد ولا أعرف متي سأعود، أعتني بالشركة واتصل بالأستاذ عمر الرخاوي وأخبره يكون علي اتصال معي أكيد سأحتاج إليه الأيام القادمة.

- خير يا فريدة قلقتني.

- ليس خير أبداً ٬ الحاج محمد أتقتل.

- لا حول ولا قوة إلا باللّٰه، كيف ومتي وبلغتم الشرطة؟

- أول أمبارح، ولا أعرف أي تفاصيل والبوليس ليس له صالح ٬ ثأرنا نأخذه بأيدينا.

- معقولة دا كلام دكتورة فريدة، أستاذة الجامعة وسيدة الأعمال المشهورة.

- لا يا بكري دا كلام فريدة بنت الفوارس جذورها في الصعيد وثأرها لن تنساه.

- عموماً لن أناقشك الآن يومين وأتي البلد أنا وراوية للعزاء ونبقي نكمل كلامنا.

- العزاء إلا لما نأخذ ثأرنا أنت نسيت عاداتنا.

- ياه كأني لم أعرفك طوال السنين اللي فاتت.

- أنا كنت واثقة إني مصيري أرجع بلدي وأصفى حساباتي مع عيلة الضبع.

- مين دول؟

- حكاية كبيرة، أكيد هتعرفها فى الوقت المناسب، مفيش وقت الطيارة ميعادها قرب.

صعدت فريدة لحجرتها فتحت الشنطة، وتحسست اللفافة لتطمئن عليها ثم أخرجت الملس وقامت بإغلاق الشنطة، وقفت أمام المرآة وارتدت الملس، نادت على كوثر لتحمل الحقيبة، أصاب كوثر الذعر عندما نظرت إليها، لكن هى تخدمها منذ سنين وتعرفها جيداً، ذعرها كان خوفاً عليها فقد قرأت ما تنوي فريدة أن تفعله قالت:

- خديني معاك يا بنتي مقدرش اسيبك فى الظروف دى..

ربتت فريدة على كتفها وقالت:

- بالعكس أنا محتاجة جداً إنك تكوني فى الفيلا الأيام الجاية.

- ربنا يحفظك يا بنتي وترجعي لنا بالسلامة أنا عارفة مشوارك طويل ولازم تمشيه ربنا معاكِ.

نزلت وعندما رآها بكري اندهش وقال:

- وكمان مَلس، الدكتورة فريدة تلبس مَلس.

ردت:

- دى أحسن حاجة فيّ دا أصلي ولازم أرجع البلد به.

أوصلها إلى المطار ولم يتركها إلا عند قيام الطائرة، عاد لمنزله أخبر زوجته راوية بما حدث قالت:

- هذه فريدة التي لا تعرفها طول عمرها تنتظر اليوم الذي ستعود فيه إلى بلدها، هي حكت لي حكايتها، وأنا كنت واثقة إنها راجعة بلدها مرة آخري.

- ممكن تحكى لي يمكن أقدر أساعدها.

- فريدة بنت أحمد أبو الفوارس أبوها كان كبير عائلته، رجل وطني وتقي كان يساعد الفدائيين أيام الإنجليز، أما العمدة و زهران جد حمدان كانا خائنين، وفى يوم هجم الإنجليز على مقر الفدائيين وقتلوهم لكن أحمد لم يكن معهم ، كل أهل البلد كانوا واثقين إن العمدة وجد حمدان هما من بلغوا ذهبوا لدار العمدة قتلوه ثم لجد حمدان وقتلوه وكان قائدهم والد فريدة ، كانت فريدة عمرها سنتين أبو حمدان كان طيب ويساعد الفدائيين من غير ما أبوه يعرف وكان واثق إن الفدائيين مصيرهم يقتلوا الخائنين وبعدها مات بالكوليرا وفجأة حمدان لقي نفسه كبير عائلة الضبع وأول حاجة عملها قتل أبو فريدة وبعدها أقام عزاء جده ظلت أمها تحكي لها كل يوم قبل ما تنام حكاية البطل الذى قتله الخائن، وعندما بلغت فريدة سبع سنوات توفت أمها فضمها أخوها الحاج محمد لحضنه وعاشت فى كنف الحاجة حليمة حتى انتهت من الدراسة الابتدائية، بعدها أصرت خالتها أن تأخذها معها للقاهرة لترعاها وتعلمها فى مدارس راقية ولتبعدها عن الثأر والاقتتال، وافق الحاج محمد لخوفه عليها فقد كان الصراع لا يزال مشتعلاً بالعزبة، عاشت فريدة بالقاهرة وانهت دراستها الجامعية ثم حصلت على الماجستير والدكتوراة، وبدأت فى تطبيق أبحاثها فى الواقع حيث

اشترت أرض بالصحراء واستعانت بالشباب المكافح فاخضرت الصحراء، ثم توفت خالتها وكانت هى الأمينة على ميراث فريدة من أمها وأيضاً لم تنجب فكتبت مالها لفريدة ،وفوق ذلك كانت فريدة لها مالها من ميراث أبيها من أراضي وغيره والحاج محمد يحفظ حقها ويرسل لها بانتظام نصيبها من ريع الأرض سنوياً ،فأنشأت فريدة شركة الفوارس كما ترى.

- ولماذا لم تعود لبلدها.

- طبعا هى ارتبطت بمشاريعها إلى جانب اختلافها مع الحاج محمد فى تعامله مع حمدان الضبع ،هي رأيها إنه لازم يتقتل والبلد تخلص من شره ، والحاج محمد كان بيكره الدم ويفضل تهويشه فقط والوقوف جنب المظلومينٍ فقرر إن فريدة تبعد عن البلد لأن وجودها معناه أما تقتل حمدان أو هو يقتلها ويرجع الثأر بين الفوارس والضبع.

- تفتكري إن فريدة فعلاً ستقتله.

- هذا ما أخشاه لازم نقف جنبها ونحميها أحسنٍ تضيع نفسها.

وصلت فريدة البلد أخذت تتجول فى أرجاء العزبة وحواريها الضيقة، البيوت هى البيوت، والناس كما هم فى الفقر والبأس وعلامات الضعف والانكسار ترسم وجوههم.

وصلت إلى دار الفوارس وقفت تحت الشجرة العتيقة ولا أحد يدري من تكون هذه المرأة الغريبة، صرخت.

- دمك لن يذهب هدر يا حاج محمد.

خرجت الحاجة حليمة على صوتها نظرت إليها برهة ثم أدركتها احتضنتها وبكت قائلة:

- ألف حمد للّه على السلامة، طال غيابك يا غالية، لابد يرجع الطير لعشه.

مالت على يد الحاجة قبلتها وانخرطت فى البكاء.

أتي فارس من الغيط كانت عمته فى صحن الدار أخذته فى حضنها وقالت:

- وحشتني يا غالي يا ابن الغالي.

قال فارس:

- حمد للّه على السلامة نورتي بلدك ودارك أخيراً رجعتي.

- كل شئ بميعاد المهم احك لي ما حدث.

سمعت منه الحكاية من أول ذهابه للغيط حتى مقتل الحاج، عقبت:

- هى لعبه عملها حمدان لأجل ما يقتل الحاج، لكن وعزة جلال اللّٰه ليدفع عمره كله ثمن لعبته القذرة.

علا صوت فارس.

- لا يا عمه الحاج وصاني أبعد عن الثأر والدم.

ثم هدأ ومال على يدها وقبلها قائلا:

- حقك عليّ إن علا صوتي عليكِ لكن هذه وصية الحاج.

قالت فريدة:

- وصية الحاج على رأسي لكن القصاص شرع ربنا والظالم لازم نخلص الناس من شره.

- ها تعملي أيه؟

- ها عمل كثير، الوقت ليس وقت كلام.

زارت فريدة قبر الحاج أغرقت دموعها تراب القبر، قرأت القرآن ودعت له كثيراً ثم خاطبته.

- أرأيت يا حاج ٬قلت لك كثيرا حمدان نبتة فاسدة لازم نجتثها من الأرض ٬رحمتك أنت وحدك من دفعت ثمنها٬ ياما قلت لك رحمة الظالم ظلم زيادة للمظلومين، كان لازم أخسرك حتي أخلص الدنيا من شر حمدان وأمثاله.

عادت فريدة للدار وأخبرت فارس ووالدته ضرورة ذهابهم للقاهرة..

قال فارس:

- عايزه أهل العزبة يقولوا فارس هرب وترك عمته لوحدها، أرفع رأسي تاني أزاي وسطهم مش ممكن.

اعترضت الحاجة قائلة:

- لن أترك داري، عمري كله هنا، الموت أهون علي.

بذلت فريدة جهداً مضنياً فى إقناع الحاجة بالسفر من أجل حماية أولاد فارس ووعدتها أنها ستكون فترة قصيرة وبعدها تعود لدارها..

أما فارس فكان رده:

- أنا ممكن أوصلهم وأرتب تحويل الأولاد للمدرسة وبعدها أرجع لك يدي بيدك.

أظهرت فريدة موافقتها على رأيه مؤقتاً على أن يكون وقته بين القاهرة والعزبة ليتابع الشركة ومدينة الأمل.

كانت زوجة فارس تكتم سعادتها في قلبها حفاظاً على مشاعرهم لكنها مقتنعة برأي فريدة إن العزبة ليست بأمان' من استطاع أن يقتل الحاج لا يصعب عليه قتل فارس وأولاده.

تم كل شئ سريعاً وانطلقت بهم سيارة لتقطع ظلام العزبة أملاً فى نور يشع أملاً وأماناً، ربما فيلاً فريدة بالمهندسين تحمل لهم ما ترنو إليه نفوسهم المكلومة.

ومع أول خيوط للفجر خرجت فريدة إلى جنينة الفوارس وفى الطريق قابلت رجلاً كبير السن ملابسه مهلهلة وفي يده مسبحة طويلة 'كان يجري في أرجاء العزبة منادياً:

- أصحوا يا بلد، أصحوا يا غافلين، مفيش نوم بعد اليوم، البلد جالها الفرج ولكل ظالم نهاية.

اقتربت منه ابتسم:

- مرحي ببنت الغالي وأخت الغالي، طال غيابك كلنا بانتظارك، البلد أكلها الدياب، والدياب ما تخاف إلا الأسود وأنتِ جواكِ قلب أسد، وأيدك عفية طالعة لأبوكِ اللّٰه يرحمه.

استغربت وسألته:

- أنت تعرفني يا حاج، شكلك مش غريب علىَ.

ضحك درويش العبيط كما يطلقون عليه وقال:

- من زمان يا فريدة الفوارس ولا أقول يا دكتورة فريدة، ربنا معاكِ ويجعلك فى كل خطوة سلام ويقدرك على إقامة العدل فى بلد انحني ظهرها من الظلم، افتحي عينيكِ الدياب غدارة، أنا معاكِ ستلاقيني في كل مكان، ما سيحدث على أيدك ستتحاكى به الناس أيام وليالي.

تركته فريدة وأكملت سيرها بالعزبة قابلها الحاج قناوي الضبع، نظر إليها وسألها:

- حضرتك غريبة عن العزبة، تحت أمرك من تريدين وأنا أوصلك.

ابتسمت وردت عليه:

- كتر خيرك، لكن أنا صاحبة أكبر دار فى العزبة.

أمعن الحاج النظر فى وجهها ثم قال:

- فريدة أخت الحاج محمد اللّه يرحمه، اعذريني يا بنتي سنين طويلة لا حد شافك.

- كل شئ بميعاد يا حاج، كان لازم أرجع وأعرف من قتل الحاج محمد.

قال:

- أنا الحاج قناوي الضبع واللّه يا بنتي أنا برئ من دم أخوكِ ربنا يعلم دا كان من أعز الأحباب اللّه يرحمه.

تطاير الشرر من عينيها وقالت:

- أوعدك إني سأعرف من قتله ولن يفلت من إيدي.

- يا بنتي حافظي على مستقبلك ودعِ الملك للمالك، ربنا للظالم بالمرصاد.

- وربنا أمرنا نقف فى وجه الظلم وأنا عاهدت ربي إني أقف فى وجه الظلم بالعزبة وأخلص الناس منه وهو شهيد عليّ.

واصل كلامه ناصحاً:

- يا بنتي مهما كان أنتِ حرمة.

ظهر على وجهها الغضب وردت:

- بكرة تشوف الحرمة ها تعمل إيه.

-٦-

في جنينه الفوارس بين أشجار المانجو والتفاح والنخيل كانت فريدة تلهو وتلعب ثم تجلس تحت شجرة التفاح التى تحبها ويتسلق سلمان الأسد رفيق طفولتها الشجرة ليقطف لها تفاحة، ثم يجرى وراءها فتختبئ وراء شجرة، وهو يبحث عنها هنا وهناك ثم يدرك مكانها من ضحكتها فيمسكها ثم يجلسان سوياً يلتقطان أنفاسهما.

قال سلمان:

- أطلع النخلة؟

أجابته:

- لا يا سلمان، أخاف عليك.

- أوعي تخافي، أنا راجل.. ثم تسلق النخلة وانزل البلح وهي تضحك سعيدة به.

وفي يوم كان يجرى وراءها بجوار الترعة فظهرت سيارة فجأة، ارتبكت ورجعت إلى الوراء فسقطت في الترعة، ألقي هو بنفسه لينقذها وكان عمره حينها تسع سنوات لكن طويل القامة، قوى البنية، أسرع طفل إلى الحاج محمد ليخبره بالحادثة.

هرول الحاج والناس وراءه وهو يتمتم بالدعاء، وعندما وصل وجد سلمان يحملها على كتفه خارجاً من الترعة فقال:

- الحمد لله ربنا يحميك.

ضمها الحاج لحضنه ثم ربت على كتف سلمان قائلا:

- جميلك فى رقبتي، ربنا يقدرني أرده.

قبل غروب الشمس وبعد أن عادت من مدرستها ذهبت إلى الجنينه كعادتها، كان سلمان فى انتظارها فى مكانهما، أسرع إليها وسألها:

- أتأخرتي ليه؟

تساقطت دموعها وأخبرته أنها ستسافر القاهرة لتكمل تعليمها هناك وتقيم عند خالتها لتبتعد عن أذى عائلة الضبع.

قال:

- بلاش أنا أحميكِ.

أعطته مسبحة بيدها وقالت:

- دى أغلى حاجة عندي خليها معاك أبقي افتكرني دايماً.

أخذها ثم وعدها أن يأتي كل يوم فى نفس الميعاد ليجلس تحت الشجرة كما كان يفعل معها حتى تجمعهما الأيام كما فرقتهما.

عادت فريدة من ذكريات الطفولة التي طافت برأسها وهي تجلس تحت نفس الشجرة، كانت الشمس قد قاربت على المغيب فغلبها النعاس ولم تدر كم مضي من الوقت حين أيقظتها صوت أقدام تتسلل بهدوء حيث تجلس.

اعتدلت فى جلستها لتنظر من القادم ، وعندما أقبل بادرته بسؤالها من يكون وكيف دخل الجنينة بدون أذن.

رد عليها بأنها يجب عليها هي أن تخبره من تكون ثم سألها:

- أزاي تدخلي الجنينة وكمان تنامي، هى كانت جنينة أبوكِ.

كتمت ضحكتها وقالت:

- أنا آسفة، غصب عني. كنت تعبانة وعيني غفلت.

قال:

- خلاص يا شاطرة، اتكلي على اللّٰه.

ضحكت وقالت:

- هو أنا طفلة بضفائر يا حضرة.

ضحك هو الآخر وقال:

- لا عروسة كالقمر حقك عليّ، ممكن تتفضلي شكلك مش من البلد، لو تريدين أي خدمة تحت أمرك.

همت بالوقوف فاصطدمت قدمها بحجر بالأرض وكادت أن تقع على الأرض سندها سلمان بيده فسقطت مسبحة من يده، نظرت فريدة للمسبحة باستغراب، ألتقطها من الأرض ولاحظ إعجابها بالمسبحة فقال:

- أنا أسف جداً مش ممكن أقول لكِ أتفضليها، أصلها غالية عليّ جداً.

شعرت بدوار وارتفعت أنفاسها فجلست تحت الشجرة، راحت عيناها بعيداً وانعقد لسانها وكأن الكلمات لم تعرف طريقها، الدقائق تمر بطيئة وهو يخشى أن يكون قد أصابها مكروه ولا يدري ماذا يفعل.. قال:

- لو حضرتك محتاجة اتصل لك بأي قريب لك تحت أمرك.

نظرت إلى عينيه وقالت:

- ممكن المسبحة.

- مسبحة عادية جداً ليس بها أحجار كريمة لكن أغلى عندي من أي جواهر أصلها من إنسان غالى عليّ.

- من؟ فريدة الفوارس.

نظرها باستغراب وقعت عيناه على عينيها حرك شفتيه فلم تخرج الكلمات، قالت:

- أنا فريدة وأنت سلمان الأسد.

كان لقاؤهما أعذب من أرق الألحان مختلطاً بالدموع مغلفاً بالحنين لا يخلو من لوم المحبين، عهد دونه الموت، حب طفولي برئ نما وترعرع فى أحضان قاسية، لم تمنعه الفوارق الاجتماعية لكن منعته أيام رويت بالدم فطال البعاد سنين، حتى هذا اليوم، فريدة لم تتذكر أن لها قلب ينبض إلا في هذه اللحظات، سلمان نظراته تحوي حنان وشوق يكفي كل المحبين، يروى ظمأ سنين جرداء لم تجد إلا قطرات دماء المظلومين.

فرك سلمان عينيه مخافة أن يكون حلماً فوجده واقع أجمل من كل الأحلام، كل هذه السنين عاش للأرض يكرس حياته للدفاع عن المظلومين لم تدخل امرأة في حياته ومن تستطيع أن تدخل قلبه وقد جلست به فريدة بضفائرها وضحكتها وأحكمت الإغلاق.. المفتاح فى يدها فقط، صارعته الأفكار تسأولات كثيرة أهمها هل هى لازلت له، أم

صارت لها أسرة والأمر بالنسبة لها ذكريات طفولة، عيناه بها الكثيرِمن الأسئلة.

قالت:

- لا يا سلمان فريدة لا زالت تذكر العهد وتحفظه هى لا تملك إلا ذلك، قلبها يسكنه سلمان الذي حملها على كتفه وخرج من الترعة أنقذها من الغرق لكن احتفظ بها لنفسه فقط.

قال سلمان:

- احكِ لي من يوم ما سافرتي.

ضحكت وقالت:

- ياه كل هذه السنين أحكيها في قعدة تحت الشجرة، عموماً أنا المهم بالنسبة ليِإلعزبة، أنت عارف أنا مشيت ليه احكي بقي من يوم ما مشيت.

اعتدل سلمان فى جلسته وبدأ الحكاية كما رواها أبوه الحاج صالح رحمه الله الغل فى صدر حمدان للفوارس مزروع فى قلبه من سنين طويلة، ففي شبابه كانت الست حليمة زينة بنات العزبة، أبوها كان رجل صالح ومن أعيان البلد، أتقدم حمدان لخطبتها وهو صاحب الأموال

والأطيان وأتقدم الحاج محمد وكان حينها لا يملك إلا عراقة الأصل وتاريخاً أبيض لأبيه مع الفدائيين وأرضاً ليست بكبيرة بالنسبة لأرض حمدان، لكن لحمدان ميراث من الظلم وكره الناس له ولجده، فرفض والد الست حليمة حمدان بكل ثرواته ووافق على الحاج محمد وكان فرحهما ليلة من ليالي البلد، رفض الحاج محمد بعد الزواج أي مساعدة من والد زوجته أو الاقتراب من أرضها، فأحبه أكثر وأعطاه خبرته، كبر الحاج حتى صارت أرضه أكبر أراضي البلد، وصار له كلمة على كل العزبة ومن هنا زاد حقده وغل حمدان عليه، خصوصاً عندما كان يقف فى وجهه مدافعاً عن الفلاحين الغلابة ضد ظلمه وجبروته.

قالت فريدة:

- أنا واثقة من قتله هو حمدان.

- كلنا واثقين أن حمدان، ناويه على أيه يا بنت الفوارس يا فريدة عصرك وآوانك.

ضحكت وقالت:

- لسه زى ما أنت السنين مقدرتش تغيرك.

رد:

- وأنتِ السنين عملت معاكِ إيه يا ترى؟

أخذت فريدة تخبره عن حياتها بالقاهرة وما حققته قاطعها:

- كل اللى أنت بتقوليه الناس كلها عارفاه، أنتِ عارفه قصدي أيه؟

تهربت من الإجابة بأن سألته ماذا فعل هو بحياته فأخبرها أنه حصل على بكالوريوس زراعة بتقدير امتياز ورفض التعيين بالجامعة حتى لا يترك والده الحاج صالح فقد أصابه العجز من سنين والتعيين معناه أن يذهب إلى جامعة أسيوط ويقيم فى محافظة أسيوط ووالده رفض ترك داره وسبب آخر لم يستطع أن يتخلص منه محفور بين حناياه.

سألته:

- أيه السبب الثاني ولا هو سر.

- مقدرش أبعد عن الجنينة واسيبها لحد تاني خصوصاً الشجرة اللي غرسناها سوا، لكن أظاهر أني كنت غلطان فى حاجات كتير..

قاطعته:

- حاجات إيه

غير الموضوع قائلا:

- متشغليش بالك، المهم أنا تحت أمرك من انهارده حتى من قبل ما أعرف أنتِ ناويه على أيه يا دكتورة.

بكت ولم ترد، فواصل:

- دموعك بتحرق قلبي، ليه بتبكى؟

- ليه قلت دكتورة، أنا عمري فرقت بينى وبينك.

- المقامات محفوظة أنا ابن الجنايني.

- وأنا مدينة لك بحياتي.

وقبل أن تكمل قاطعها.

- حياتك أغلى عند من حياتى وهافضل أفديك بروحي طول ما قلبي ينبض أخر مرة تبكي.

- يبقي أنا فريدة وبس ولو تقدر حصلني زى زمان.

جرت فريدة وهي فى قمة الرشاقة والسعادة فى عينيها كأنها طفلة صغيرة، آتى سلمان من الأمام وأمسكها قائلا:

- أديني مسكتك.

ضحكا سوياً ثم خرجا من الجنينة وقام بتوصيلها إلى الدار ثم أخبرته إنها ستأتي لزيارة الحاج صالح بعد صلاة العشاء.

دخل سلمان على والده باسم الوجه يدندن، سعد الحاج لسعادته فقليلاً ما يراه مبتسماً، وعندما أخبره أن فريدة عادت للعزبة أدرك حينها سبب سعادته وعقب.

- كانت لازم ترجع، هى دى اللى هاطير النوم من عين حمدان، هى حرمة صحيح لكن لها قلب أسد ورأسها أنشف من الحديد وبميت راجل.

دخل سلمان حجرته، نظر للصور المعلقة على جدران حجرته كلها قصاصات من الجرائد بها صور فريدة، هذه وهى تتسلم الجائزة من الوزير، وأخرى وهى على حصانها بعد فوزها المركز الأول، وتلك وهى فى بطولة الرماية، كثير وكثير فها هى تفتح شركتها، وجد سلمان غصة فى حلقه، هل يحق له ما يتمناه وهى ما هى، سمع صوت بداخله ولِمَ لا الزمن تغير وهو أيضاً جامعي ولديه من الأرض والمال ما يرفع شأنه.. نظر للمرآة وهو حزين فهو يدرك أن القصة ليست المال ولا الشهادة إنما تقاليد كبلتنا سنين آن الأوان أن يتم تخطيها أو تغييرها.

آتت فريدة لدار الحاج صالح بالملس وقد استقبلها بحفاوة أهل الصعيد البسطاء وكرمهم الفائض ودارت بيتم أحاديث كثيرة عن البلد وأهلها وحمدان وظلمه ثم رست الكلمات على شاطئ الأحزان حيث وفاة الحاج محمد، هاجت المشاعر وصمتت الشفاه، ولم يسمع إلا صوت قطرات الدموع.

سألته فريدة:

- تفتكر مين عملها.

- ما يعملش كده إلا فاجر والبلد فيها فاجر واحد كان لازم دليل.

نصح الحاج صالح فريدة ألا تستسلم لبعض الأفكار التى تراودها وأنها عندما تجد الدليل تسلم القاتل للحكومة ولا تدنس يدها فالبلد تنتظر منها الكثير فقد طال غيابها عنهم والهموم كثيرة والمشاكل لا حصر لها وهم لأمل لهم إلا هى خصوصاً بعد مقتل الحاج محمد.

رجعت فريدة إلى دارها وقد ارتاح قلبها للحديث مع الحاج صالح، دخلت حجرة أخيها فتحت مصحفه فرأت وجهه على المصحف ويقول لها:

- أوعاك تمشي وراء الشيطان والهوى، خلى ربنا فى قلبك والعدل ميزانك، فارس وأولاده أمانة.

قالت: - اطمئن يا حاج.

اختفت الصورة فتركت المصحف مكانه وتوجهت لحجرة فارس، رأت صورة أولاده على الحائط، نظرت إليهم وكأنهم يرجونها.

- أنتِ مكان جدنا وأحنا ملناش غير أبونا، احميه من حمدان وشره.

انتهي بها المطاف إلى حجرتها، ارتمت على سريرها محاولة النوم.. رأت وجه سلمان على وسادته.. يقول لها:

- خلى بالك من نفسك، أنتِ أغلى من روحي.

سعدت بذلك وضمت الوسادة مستسلمة للنوم.

-٧-

فى منزل حمدان الكل جافاه النوم حتى حمدان نفسه فقد زاد من همه سفر ابنه الذي لا يعلم إلى أين ذهب، وأمه لا تكف عن البكاء، وقد زاد عنادها لزوجها واحتقارها له حتى قالت له:

- مش ممكن تكون بني آدم بتحس زينا، قلبك قاسي حتى على ابنك الوحيد.

رد: - ابنك مدلع بكره يرجع لحضنك بعد ما تخلص الفلوس معاه.

بكت قائلة: - سالم مش راجع تاني، أنت ضيعته.

صرخ فى وجهها:

- غبي أنا عايز أذل الفوارس وتبقي عيلة الضبع أكبر عيلة فى العزبة بعد ما أخد كل أطيانهم.

قالت بسخرية:

- أنت بتحلم عمرك شفت ضبع قدر على فارس، عمر الواطي ما يبقي عالي وعمر البحر ما يبقي ترعة.

انهال عليها ضرباً وركلاً بلا رحمة.

قالت: - اقتلني يا حمدان، الموت أرحم من العيشة معاك، ولا طلقني وأنا أروح أدور على ابني بنفسي.

ضحك بهستيرية قائلاً:

- اللى يعيش مع حمدان ما يخرجش إلا بموته، فاهمة يا حرمة.

قالت:

- هتحبسني يا حمدان.

رد بغضب:

- أيوه ها حبسك بدل مت أقتلك.

خرج من عندها وأمر أحد الخفر بعدم ترك باب الحجرة ومنعها من الخروج مهما كانت الظروف.

جلس فى صحن الدار ثم نادي على مغاوري وأمره أن يأتيه بعطية فى الحال.. تمتم مغاوري فى سره ولم يرد، هم أن يضربه بالسوط فأخبره أن عطية صار كالمجنون أطلق لحيته ويدور بالعزبة ليل ونهار ينادي على أولاده بعد ما أخذتهم زوجته روحية وهربت ولا يدري أين ذهبت بهم.

أمره أن يحضره، حتى لو اضطر أن يأتي به مكبلاً.

وقف عطية أمامه منكس الرأس، طويل الذقن، مهلهل الثياب كالمخبول يبكى كالطفل، صراخ حمدان فى وجهه:

- عيب على شنبك بتبكى زى الحريم.

قال:

- أم العيال أخذت العيال وهربت.

يرد حمدان:

- فى ستين داهية، بكرة ترجع، ولا عنها ما رجعت، أتجوز سنيه أرملة عطوة بيقولوا زى فجة القمر، ثم ضحك بصوت مخيف.

رد حمدان:

- لا يا بيه مراتي بنت عمى، عرضي وشرفي وولادي سندس.

عقب حمدان:

- المهم أنا عايزك تستنى فارس على الطريق..

وقبل أن يكمل قال عطية:

- فارس سافر وعمته فريدة رجعت العزبة.

ضحك بخبث وقال:

- أخيراً عرف طريقه لقلب فارس، لو ما طيرتش النوم من عينك مبقاش حمدان الضبع.

عطية بصوت خفيض:

- اللّٰه يخرب بيتك زى ما خربت بيتي، أنا اللى غلطان مراتي قالت دم الحاج محمد هيكون لعنة علينا، لو مرجعتش مراتي ها قتلك بأيدي يا حمدان وخلص الناس من شرك.

قال حمدان:

- أنت بتكلم نفسك يا عطية؟

- أيوه من يوم ما عيالي طفشوا وأنا بكلم نفسي.

فكر حمدان أن الفرصة الآن مواتية له، يقتل فريدة قبل عودة فارس وبذلك يمزق آخر صفحة فى حياة الفوارس ويستولي على أطينهم ويضع على أول العزبة لافتة كبيرة مكتوب عليها [عزبة الضبع].

لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فعطية جرى من أمامه كالمجنون ينادي على أولاده، ضرب حمدان كفاً بكف وقال:

- هو أنا كنت ناقص ضياع عقلك، يا خسارتك يا عطية.

جلس حمدان يفكر فى هذا البلاء الذي حل به فربما يتكلم عطية وهو يلف بالعزبة فى حاله هذا ويذكر أن حمدان من أمره بقتل الحاج محمد، ولو قتله الآن سيدرك الناس أنه تخلص منه حتى لا يجهر بالحقيقة.. برم شنبه بيده وضحك ضحكته الشريرة قائلاً:

- لازم يتخرس نهائي، حتى لو ها قطع له لسانه.. وساعتها لما الناس تشوفه تقول كان فى عركة مع حرامية وعملوا فيه كده.

صار للعزبة درويش آخر يطوف بها يسأل كل من يقابله عن زوجته وأولاده، والناس تنظر إليه منهم من يرى أن هذه نهاية طبيعية نتيجة شغله مع حمدان بظلمه وجبروته وآخرون يرون أن هذا انتقام ربنا وأن دم الحاج محمد يقطر من بين أصابعه لكن لن يستطيعوا أن يجهروا بذلك فعم لا حول لهم ولا قوة وهذا صراع الأكابر وهم لا ناقة فيه ولا جمل.

وفى جنح الظلام كان حمدان قد قرر أن ينفذ ما فكر به بنفسه حتى لا ينكشف سره، وفى الصباح بدأ كأنه لم يفعل شيئاً فسأل مغاوري عن

عطية، بل وأمره بالإحسان إليه إذا رآه ورعاية أرضه حتى يعود عقله ويجد أسرته.. وقبل أن ينهي حديثه سمع صهيل فرس أمام الدار، خرج مغاوري لينظر ثم رجع مهرولاً مرتعداً وقال:

- الحقني يا بيه، هتقتلني.

سأله:

- مين يا واد جاتك مصيبة؟

- فريدة الفوارس، وقبل أن يكمل الجملة كانت فريدة فى عقبه، حاول حمدان أن يدارى هلعه.. قال:

- أهلاً بك فى داري.

ردت:

- أنا فريدة الفوارس، ما سمعتش عنى، عموماً لو مسمعتش هتشوف بعينك، أوعى تفتكر أني زى الحاج محمد اللّٰه يرحمه، أنا صحيح حرمة زى ما بتقولوا لكن قلبها ميت.. ثم صرخت فى وجهه.. مين قتل الحاج؟

غاص قلب حمدان فى أعماقه وكاد أن يبتلع لسانه من الرعب، قال وهو يتهته كالطفل:

- أسألي أهل البلد، أنا كنت نايم فى الدار.

- أنا هأعرف من غير ما أسأل، لكن قسماً عظماً لو أنت اللى عملتها ها تشوف الحرمة ها تعمل أيه فيك.

- أنتِ بتهددينى فى بيتي، عموماً أنا مقدر ظروفك ومش أرد مهما كان برضه أنت حرمة.

- أنا وأنت والزمن طويل يا حمدان.

أنهت حديثها ثم خرجت ركبت حصانها وانطلقت كالريح فى اتجاه الجبل وحمدان مبهوتاً لا تقوى رجلاه على حمله، ولا يدري ماذا سيفعل مع هذه المرأة الغريبة.

****

هذه المرة الأولي التى تصعد فيها فريدة الجبل وربما تكون هى أول امرأة تصعد للجبل وبمفردها، كانت كل صلتها بالجبل ما سمعته من أهل العزبة وهي صغيرة، لكن هدى تجازف بحياتها من أجل الحقيقة، قُتل والدها وهي طفلة بسبب عائلة الضبع، وها هو يُقتل أخوها أيضاً

لابد أن تقف فى وجه حمدان وتنهي الظلم فى العزبة.. فالحاج كان يحجم حمدان لكن لم يقض عليه ربما لأنه قدرها هى.

رأت فريدة كهوفاً كثيرة محفورة داخل الجبل، يسكنها رجال عندما رأتهم حسبتهم قلوبهم أقسي من صخور كهوفهم لكن عندما حدثتهم رأتهم من خيرة الرجال التى قابلتها فى حياتها، تمنت لو تركوا الجبل ونزلوا إلى العزبة لغيروا واقعها الذي ظلل وجه الكئيب على أهلها سنين طويلة.

قابلوها بترحاب خصوصاً حمزاوي الذي اصطحبها إلى كبيرهم الحاج شعلان الذي أصر أن تأخذ واجب الضيافة قبل أي حديث، وعندما لمح فى عينيها فلق أدك ما تفكر به فأخبرها أن أموالهم كلها حلال، حتى لو رأتهم مطاريد بالجبل وأن الحاج كان على صلة دائمة بهم وأنهم حزنوا لقتله.. وحزنوا أكثر عندما عرضت عليهم المال مقابل أن يساعدوها.

لامت فريدة الحاج شعلان على انعزاله فى الجبل واعتبرت ذلك سلبية وقالت له:

- لو كان الشرفاء مكانهم الكهوف فى الجبل، يبقى لازم الديابة والضباع تسكن القرى وتأكل أهلها.

رد الحاج شعلان:

- يمكن يكون دا فى حد ذاته كان موقف ويمكن يكون جاء اليوم اللي كلنا منتظرينه من زمان، كل واحد فينا له حكاية، أنا عن نفسي كاره العزبة واستسلام أهلها للظلم، كثير قلت لنفسي "اقتل حمدان وريح الناس من شره" لكن مش دا الحل، لو قتلته هيجي حمدان تاني يتحكم فيهم، لازم الناس ترفض الظلم، ولما يحصل دا هكون فى وسطهم أحنا بينا اللى هارب من الثأر أو مظلوم زي حمزاوي مثلا واللى مشاكلهم مش هتتحل غير لو الناس فى العزبة اتغيرت والحمد للّٰه مفيش بنا حرامي ولا نصاب ولا تاجر مخدرات اطمئني.

ساد الصمت المكان إلا من صوت أحدهم يغنى على الربابة:

انتظرت لقا الأحباب

بعد بعاد وغياب

رجعت وراحوا الأحباب

وتركونى فى ضنى وعذاب

اعتب عليك يا زمان

ولا اعتب على الإنسان

أغروقت عيناها بالدموع، قال الحاج شعلان:

- اللى يشوفك وأنتِ بتبكى عمره ما يصدق إنك طلعنى الجبل لوحدك.

قالت:

- من ساعة ما سافرت شفت الحاج مرات معدودة ولما رجعت العزبة كان أتقتل، قلبي أيد نار.

- مقدر ومكتوب يا بنتي، المهم تشفي غليلك وتأخذي ثأرك.

- المشكلة أن وصية الحاج بلاش دم.

- الحاج كان قلبه طيب، لكن الدنيا عايزه يد عفية وقلب ميت وإلا تدوسك، طول ما الظلم راكب وطايح وأيده طايلة والعدل ساكن كامن يدوب بيرد ضربة الظالم بعد ما تحصل يبقي لازم تكون النهاية إن الظالم يستقوى ويصطاد العدل فى غفلة وهو دا اللى حصل، كان لازم نقلع جذور الظلم من الأرض.. عموما اللى حصل مقدر ومكتوب.. وخلي القتل علينا.

تناولوا الطعام، وضع أحدهم براد الشاي على الراكية وفريدة يلح عليها الفضول أن تعرف حكاية حمزاوى.

قال:

- ياه يا ست هانم من يوم ما طلعت الجبل متكلمتش أنا هاقولك.. أنا من عيلة الضبع، اتجوزت بهية بنت عمى خطبتها وهى فى اللفة، كانت زى فجة القمر، رآها حمدان بالغيط زاغت عينه وطمع فيها ما هو ديله نجس، وفى يوم راح لها الغيط واقترب منها ورفع يده إلى رقبتها بكردان ذهب ابتعدت عنه وقالت: أيدك يا حمدان قطع أيدك، يمين باللّٰه لو ما بعدت عنى ما لك اللى فى رجلي يا راجل يا ناقص.. اقترب حمدان منها فصرخت، جريت عليها، لقيته رفعت فأسي لضربه، التف رجاله حولي ونزلوا ضرب فيّ، انكسرت نفسي ورجعنا بيتنا وبعد ساعة هجم المأمور على الدار، قبض عليّ بتهمة سرقة خزنة حمدان ومحاولة قتله وفى الطريق للقسم هربت وطلعت الجبل.

سألته:

- وبهية عملت إيه؟

هو بصوت يخنقه الدموع:

- بهية روحي كنت أحرسها من بعيد طول الليل وبعدين فكرت تخرج من العزبة وتسافر مصر وتقعد فى ريح أهل البيت عند أم هاشم وربنا يحميها ببركة أهل البيت أخذت الفلوس من الحاج شعلان ونزلت، لكن أتأخرت عليها، دخلت لقيتها غرقانة فى دمها، السكين فى قلبها لأنها رفضت تفرط فى شرفها، أخذت السكينة وجريت كالمجنون ناحية دار حمدان لأجل ما أقتله، جرى ورايا الخفير يصرخ:- ألحقونا يا ناس، حمزاوي خارج من داره والسكينة فى يده غرقانة دم، حمزاوي قتل بهية، هربت تاني للجبل، قعدت محموم شهر وبعدها ربنا ألهمني الصبر والبركة فى الحاج شعلان، قال لما حاولت قتل نفسي يعنى تخسر دنيا وآخرة، اطمئن ربنا كبير وهيرجع للمظلوم حقه، ومن يومها وأنا عايش مستني اليوم اللى اشفي فيه غليلي.

لم تجد فريدة ما ترد به ثم استمعت إلى قصة الحاج شعلان وهى لم تختلف كثيراً الظلم عندما يستشري ولا يجد من يردعه فيضيع أصحاب الحق ويبقى الحق ينتظر له أصحاب آخرين لينصروه، ربما آن الأوان ليجمعوا شتاتهم ويجتثوا الجذور الخبيثة من الأرض الطيبة.

كان الحاج شعلان فى بابه على رأس المقاومة الشعبية ترك وراءه بناته الثلاثة وزوجته وأتخذ مقر بالجبل يدرب الفدائيين ويخزن الأسلحة ويخطط لهجوم تلو هجوم حتى أتعب الحيل الإنجليز للقضاء عليه، فهجموا على داره وقضوا على أسرته وحرقوا الدار ليجبره على النزول ويعرفوا منه مكان الفدائيين، لكن هو بثبات قال "قل لن يصيبنا إلا ما كتب اللّٰه لنا" ثم خطط لتدمير مخازن أسلحتهم ونجحت العملية، فزاد غل الإنجليز وقتلوا كل أسرته وألقوا جثثهم على مدخل العزبة نزل الحاج وبعض رجاله فى ظلمة الليل دفنوهم وهو يردد "إنا للّٰه وإنا إليه راجعون" وبعدها زار بيت اللّٰه الحرام ثن عاد إلى الجبل وأتخذه مقام له فقد وجده أرحب من الأرض أختلط طينها بدماء المظلومين.

بعد أن تركت فريدة الحاج شعلان أخذ يفكر فيما قالته، توالت الذكريات أمام عينيه فقد كان شابًا لا يهاب شيئاَ، لم يكن يوماً سلبياً بل كان يخطط ويدبر، ما الذى أصابه، هل جبن أم ضعف همته.. لِمَ ترك العزبة واعتصم بالجبل.. ياه سنين طويلة لم ينزل إلا للحج.. إلى متى؟!!.. إن لم يكن هو من يغير فمن يفعلها.. آه يا فريدة أيقظتي مارد نائم من سنين.. لا عذر لك بعد اليوم يا شعلان.. كان عذرك أن الحاج محمد لن يستجيب أما الآن امرأة ترفض الاستسلام وتعلن الحرب فلا مناص.

دخل حمزاوي على شعلان وهو يحدث نفسه:

- عذر أقبح من ذنب يا شعلان حرمة ركبتك العيبة.

قال حمزاوي:

- عندك حق كنت بفكر وبقول فين حمزاوي بتاع زمان معقولة بعد كل اللى عملناه فى شبابنا نموت وندفن فى الجبل، لا يا حاج بلدنا وناسنا محتاجين لنا، هم غلابة الجهل والفقر ذلهم، كان لازم ناخد بأيديهم ونفضل وراء الحاج لغاية ما يسمع كلامنا يمكن كنا قدرنا ننقذه من الموت.

رد شعلان:

- عموماً كل شئ بميعاد ومن اليوم فيش سكات.

عادت فريدة إلى دارها وهى أشد إصراراً على القضاء على الظلم وإن كلفها ذلك حياتها، جلست فى صحن الدار التى صارت موحشة بدون أهلها وكأن كتب عليها الوحدة سواء بالقاهرة أو فى موطنها، اتصلت بفارس فلم تجده أحسن حالاً منها، فقد أوحشته الدار والأرض والخيل، وحزن عندما علم فرسه عاف الطعام منذ سفره وتدهور حاله، رجته عمته أن يتذرع بالصبر حتى يأتي الوقت المناسب.

قال:

- يا عمتي الأرض لو ما ارتوت بعرقي تموت.

أخبرته أنها تشعر بحنينه لكن هى تريد أن تفوت على حمدان فرصة قتله وأنه لن يقبل على قتل حرقه، ثم أخبرته أنها ترتب أمراً سيشاركها فيه للتخلص من حمدان وزبانيته.

أنهت المكالمة وفارس يحاول التماسك والصبر على مضض، دخلت حجرة أخيها كأنها تُسلم عليه، جلست إلى سريره وتذكرت عندما كانت طفلة صغيرة يضمها إلى حضنه فى اليوم الشاتي، ترقرقت دمعتان لم تشأ أن تمنعهما، نظرت لوسادته رأت وجهه كالملاك يقول:

- أوعاك تبكى وخلى بالك حمدان غدار، حاربي الظلم وكملي طريق الفوارس وارعي حدود ربنا، وسامحيني أنت كنت صح، كان لازم نقلع جذور حمدان من زمان.

تحسست الوسادة لم تجد وجهه، استغفرت ربها وذهبت لحجرتها.

بعد طلوع الشمس كانت فى طريقها إلى قبر الحاج لزيارته فرأت درويش على غير عادته متجهم الوجه متكئاً على عصاته الغليظة يسرع فى خطواته حيث أرض حمدان التى بجوار الست نفيسة وكان سليم

الغلبان فى انتظاره ومعه ثلاثة جراكين من الكيروسين، قام درويش بسكبها على الأرض، ثم ألقي بعود كبريت مشتعل، سرت النيران تأكل ارض حمدان، جرى درويش يضحك ويردد:

- ولسه يا غراب البين.

أما سليم فقد وقف بعيداً عن الأنظار مستمتعاً بالنيران وهى تأكل أرض حمدان، شعر أن نيران السياط التى ضربها له أمام الناس قد انطفأت.

عندما علم حمدان بما حدث هاج وماج وتوعد ثم أسرع إلى الست نفيسة فى أرضها سألها عمن تجرأ وحرق أرضه، سخرت منه قائلة:

- يمكن أحفادي الصغار.

توجه إلى دار الفوارس، ربما يكون فارس قد عاد، لكنه وجد فريدة على باب الدار تحت شجرة الحاج وبيدها البندقية وبجوارها حصان الحاج الذى تركبه منذ عودتها، قال بغضب:

- هى دى تصرفات ولاد الأصول، تحرقوا أرضي بالليل.

ردت عليه:

- أنت جرى لعقلك حاجة الفوارس ما يعملوش حاجة بالليل، أنا لما أحب أحرقك ها ولع فيك فى عز الضهر، واللي خلق الخلق لو ما مشيت من أدامي هى طلقة من البندقية ولا لك دية.

رفعت فريدة البندقية وصوبتها إلى جبهة حمدان، أقبل سلمان بفرسه كالبرق وقف أمام حمدان ثم نزل من الفرس قائلا:

- أنت بتعمل أيه أمام دار الفوارس وأزاي تتجرأ وتيجي هنا أنا أقدر أدفنك مكانك.

صار حمدان كالفأر أمام فريدة وسلمان، حاول مدارة ذعره، قال:

- كنت عايز أعرف مين حرق أرضي وأكيد هاعرف.

ردت:

- وأنا أكيد هاعرف مين قتل الحاج محمد.

عاد حمدان إلى داره ينهشه الغيظ وفى طريق عودته كان درويش العبيط يجلس على الأرض وأمامه بعض الحطب ويدندن:

- يا مين يديني خروف أشويه على ناري.. وعندما رأي حمدان اعترض طريقه قائلا: شفت النار بتاعتي يا حمدان، إيه رأيك ممكن أشوى عليها خروف.

دفعه قائلا:

- جاتك البلاوى هو أنا ناقصك يت خرفان أنت.

دخل داره مستشاطًا من الغضب، أسرع إليه مغاوري، ظل حمدان يردد كلاماً كثيراً مهدداً ومتوعداً بالقتل لفارس وفريدة وتارة بحرق أرضهم بل حرق عزبة الفوارس كلها ومغاوري أمامه كالصنم لا يرد.

قال حمدان:

- جاتك نيلة هو أنا معرفش اتكلم معاك.

رد:

- يا بيه دى عملة جبان والفوارس ميهملوش كده واصل.

طرده حمدان لأن كلامه لم يعجبه، خرج مغاوري يبرطم فى سره:

- يا ظالم عدوينك بعدد شهر رأسك، ربنا يخلصنا منك، اللي عملها صحيح راجل من ضهر راجل، ثم رفع يده إلى السماء داعياً: يا رب توب عليّ من الشغل معاه قبل ما تكون نهايتي زى عطية، مسكين يا عطية، يا ترى أنت فين وعامل أيه؟.

-٨-

كان عطية يصارع الموت، غارقاً فى دمه حين مرت سيارة نقل على الطريق الزراعي، رآه التباع ملقي على الأرض فأسرع إليه وضع أذنه على صدره وجده لا يزال على قيد الحياة، أقترح على السائق أن يأخذه ويسلمه لأقرب مستشفى، تردد السائق أولا ثم رق قلبه لحاله فوافق، وفى الطريق تساءل التابع عمن يكون فعل به ذلك، أجابه السائق أنهم صعايدة ربما يكون ثأر أو عركة كبيرة.

استقر عطية بمستشفى بالقاهرة بعد أن حولته إليها المستشفي التى أودعه بها السائق وذلك لقلة الإمكانيات بها ولسوء حالته، لم تجد المستشفى أي أوراق تثبت هويته مكث على حافة الموت أياماً، ورق له "الدكتور ماجد" فاهتم بحالته فهو رقيق القلب، دمث الخلق، وقد أهتم به لسوء حالته الصحية والنفسية، وبعد فترة تحسنت صحته لكن فشل الدكتور فى الوصول لأي معلومات، فكلما سأله أشار بيده أو حاول النطق بلا فائدة، أحضر له ورقة وقلم ففهم منه أنه لا يقرأ ولا يكتب، انتهت فترة العلاج فجلس عطية على باب المستشفي باكياً، لا يدري أين يذهب ولا ماذا يفعل، خرج الدكتور ماجد فرآه فاصطحبه معه إلى منزله فهو يعيش بمفرده، لكن عندما علمت خطيبته بذلك اعترضت

بشدة وحذرت ماجد ربما أن يكون مجرماً أو يسعى وراءه أحد، طمأنها ماجد قائلاً:

- إنه وحيد غريب ولا حول له ولا قوة.

ومن يومها تبدل حال عطية فقد رأى ماجد يتوضأ ويصلى ففعل مثله، وكانت هذه أول مرة يسجد فيها عطية لربه، وبعدها ترك ذقنه وأصبح لا هم له بعد تنظيف منزل ماجد إلا أن يجلس يصلى أو يسمع القرآن الكريم، وعندما يخلو بنفسه يتذكر زوجته روحية وأولاده وقولها له "أن دم الحاج محمد سيكون وبالاً عليه" فيدرك أنها كانت على محقة فينهار باكياً ويدعو اللّه أن يغفر له ويكرمه بالعثور على زوجته وأولاده.

أما روحية فقد شعرت بالطمأنينة بعد أن استقر بها المقام عند خالتها بالقاهرة ورزقها اللّه بالعمل عند أناس طيبين "الأستاذ بكري وزوجته راوية مدرسة ثانوي" أخبرت روحية مدام راوية أن زوجها توفاه اللّه من فترة وهى تعمل لتربي أولادها، تعاطفت معها راوية لمسحة الحزن التى تبدو على وجهها ووعدتها أن تقف جوارها فى تربية أولادها.. هدأت روحية وحمدت اللّه أن صلتها بالماضي قد انقطعت وهى لا تدرك أن الأستاذ بكرى هو المحاسب القانوني لشركة الفوارس لتصدير الخضروات وأن مدام راوية هى الصديقة المقربة لفريدة وهى أيضاً

مدرسة اللغة الإنجليزية فى المدرسة التى انتقلت إليها حبيبة، وقد اتفق معها فارس أن تعطى حبيبة درساً لتقويتها فوافقت على أن يحضرها لمنزلها لأنها لا تذهب لمنزل أي ولي أمر وبهذا يكون الخطر قيد أنملة منها وهى لا تدري.

وفى ليلة المولد النبوي يذبح الحاج سبعاوي والد راوية أكثر من عجل ويرسل لابنته أكياس كثيرة لتوزيعها على الفقراء وقد تعودت منذ أن كانت بمنزل والدتها أن تعد فتة الأرز واللحمة لتطعمها كل الجيران وتستقبل الأصدقاء وتوزع على باقي أهل الحى فطلبت من روحية ألا تتركها فى هذا اليوم وأن يأتوا الأولاد من المدرسة إليها ليحضروا الاحتفال بالمولد النبوي، سعدت روحية بذلك وفى أثناء اندماجها تذكرت بيت الفوارس وما كانوا يفعلونه فى هذا اليوم المبارك وترحمت على الحاج محمد وارتسم على وجهها الحزن، سألتها راوية عما بها، فأجابتها:

- افتكرت ناس طيبين كنت بشتغل عندهم، كانوا زيكم يطعموا الفقراء فى كل الأيام المباركة.

سألتها:

- ليه مشيتي من عندهم؟

نزل السؤال كالصاعقة، اضطربت وتلعثمت ثم استجمعت نفسها وردت بعد تنهيدة:

- صاحب الدار مات والدنيا بقت غير الدنيا وعشان مكتوب لى أقابلك من حسن حظى.

أما سالم فهو ليس أسعد حالاً من روحة فالخطر حوله أيضاً دون أن يدري فقد استقر به المقام فى بنسيون بالسيدة زينب يملكه رجل كبير السن يدعى "الحاج وهدان" ليس له أولاد لذا يُشغل نفسه بهذا العمل، وهو لا يستقبل إلا الشباب المغترب سواء للعمل أو الدراسة، يقترب منه ويحيا الأبوة الحنونة معهم فيستمع إليهم ويحل مشاكلهم وقد أخبره سالم أنه من الصعيد وفى آخر سنة للحقوق جامعة القاهرة ويبحث عن عمل ليكمل تعليمه، فوعده أن يسعى له فى هذا الأمر، فقد أدرك الرجل بفراسته أنه صادق وهو فعلاً كذلك فهو وإن كان ابن حمدان لكن لا صلة له بسلوكه لكن يدفع الضريبة كاملة من سعادته ومستقبله، وكلما غلا بنفسه غلبه البكاء وه لا يدري أن يبكى على نفسه، أم على الرجل الوقور الذى قُتل غيلة، أم فراقه لأمه، وكلما تذكر حبيبة بوجهها الملائكي التى ملكت قلبه وكان لا يراها إلا خلسة وهى تتوسط أخويها محمد وسيف فى طريقها إلى المدرسة، والآن صار لا

يرها وقد باعدت الظروف بينهما أكثر وأصبحت فكرة الارتباط بها غدت مستحيلة.

لم ينس الحاج وهدان وعده لسالم فأرسله إلى محام كبير "عمر الرخاوي" ابن صديقه الحميم وهو صاحب أكبر مكتب محاماة وسط البلد، وعندما توفاه الله حل ابنه محله، رحب الأستاذ عمر بسالم ووعده أن يقف بجانبه خصوصاً بعد أن علم أن تقديره فى كل السنوات امتياز، وقد حرص سالم ألا يكر لقب الضبع فى اسمه فهو وإن كان بالقاهرة إلا أنه يشعر أن كل من حوله يعرفونه ويعرفون أفعال أبيه.

لك يكن خوف سالم من فراغ فالأستاذ عمر الرخاوي هو المستشار القانوني لشركة الفوارس وهو الصديق الحميم لفريدة ويعلم الكثير عن العائلة، وقد أوصته على الشركة قبل سفرها وهو يرعي أموالها بكل أخلاص لحبه لها وقد طلب يدها أكثر من مرة وهى تتهرب فى ذوق وأدب فيصبر ويحاول مرة أخرى بعد فترة وعندما أخبرته أنها ستسافر إلى العزبة لوفاة أخيها أشتد قلقه عليها ولم يستطع أن يمنعها فوعدها ألا يتركها والأسرة إلا بعد أن تتحسن الظروف وهو الذى قام بنقل أولاد فارس للمدرسة ويمر عليهم يومياً بالفيلا ليطمئن عليهم، وأيضاً يصطحب فارس إلى الشركة ويعرفه كل صغيرة وكبيرة بها.

أما أولاد فارس فقد اندمجوا فى دروسهم، صحيح بهرتهم أضواء القاهرة وشغلتهم بعض الشئ عن العزبة بمشاكلها لكن أبداً لم تنسهم طموحاتهم والتى كان يحلم بها جدهم وكان ينوي أن يذهبوا جميعاً إلى القاهرة ليتموا تعليمهم الجامعي هناك وهم بتدرجهم التعليمي أكبرهم فى الثانوية العامة وأصغرهم حبيبة بالصف الأول الثانوي يعنى ذهابهم إلى القاهرة كان سيحدث حتى لو لم يتم قتل جدهم فقد كان حلمه وحلمهم أيضاً أن يدخل محمد الحقوق ليدافع عن المظلومين كما يفعل جده لكت وبيده القانون ليصير أقوى، أما سيف فيميل إلى القوة وهو أقرب إلى شخصية فريدة لذا يحم أن يصير ضابطاً فى الشرطة ويري أن العدل والحق لابد لها من قوة تحميها، أما حبيبة الرقيقة فحلمها أن تصير طبيبة يراودها ليل نهار هكذا غرسه جدها فى طفولتها وكبرت وهى تريد جعل الحلم حقيقة وهمها علاج الفقراء فى العزبة وكأن الفوارس قد خلقهم اللّٰه جنوداً للخير يقضون حوائج الناس حتى عندما يحلمون فأحلامهم لمن حولهم، وبهذا تكون الخيوط التى تمزقت بعزبة الفوارس قد جمعتها الأقدار بالقاهرة لسر ربما تبوح به الأيام فى حينه.

-٩-

في مقابل بعض الهدوء الذى منحته القاهرة لضيوفها فإن عزبة الفوارس تأبي لأهلها إلا قدور تغلي كالبركان أطار النوم من عيونهم جميعاً، فحمدان طار النوم من عينيه منذ وصول فريدة العزبة وزاد الأمر سوءاً فقده لعطية فقد كان اليد المدبرة لكل أعماله الخسيسة ومغاوري شديد الغباء ضعيف لا يستطيع أن يجاريه وزد على ذك عصيان زوجته له وتجراها عليه بعد هروب ابنه، أما سلمان فيشقي بخوفه على فريدة فهي أمامه بلا أمر أن يصل إليها، ناهيك عن حزنه لما آل إليه حال أهل العزبة الذين صاروا كاليتامى بعد وفاة الحاج.

أما فريدة فحملها تنوء منه الجبال ما بين ثأر وعزبة مهضوم حق أهلها وظلم يعربد بعد أن ظن أن الطريق ممهداً أمامه وهى لن يهدأ لها بال ولن تستريح إلا بعد أن تحصل على ما يبدلها على قتل الحاج وتأخذ ثأرها بطريقتها وتغير واقع العزبة كله فتقتلع الشر من جذوره وتزرع بذور حب تحي العزبة من موات كاد أن يهلكهم، ولا نخفف عنها حملها إلا بعض أوقات تقضيها فى الحديث مع سلمان بجنينة الفوارس، رغم أنها لم تذهب إلا مرتين أو ثلاثاً لكن هذا المكان يحمل ذكريات طفولتها وحبها الطفولي البرئ لسلمان الذى لم تستطع السنين أن تمحوه بل نما وترعرع فى قلبها فلم ترسواه وهو ليس أقل حباً لها كن يساوره الخوف

ألا تقبل عرضه بالزواج لكن لا مناص من عرض الأمر عليها وليكن ما يكون.

دخلت الجنينة وجدته فى انتظارها تحت شجرة التفاح، انفجرت أساريره وأقبل نحوها تلمع عيناها وتشع ابتسامة غابت كثيراً عن وجهه، قال:

- وحشتينى، قلقت عليكِ.

ردت:

- لو كنت وحشتك كنت جيت الدار سألت عليّ.

قال:

- أنتِ فاكره نفسك فى فيلتك بالمهندسين أحنا فى الصعيد، أزاي أدخل الدار ومفيش غير الخدم، مقدرش حد يتكلم عليكِ عموماً الحمد للّه إنك بخير، أنا مش بنام من قلقي عليكي من ساعة ما وصلتي العزبة، نفسي أكون ظلك فى كل مكان وأفديكِ بروحي.

كسا الخجل وجهها ولم ترد.

أكمل وهو ينظر للشجرة:

- الشجرة دى تشهد عليّ يا ما سهرت سنين طويلة فى ظلها أستناكِ لغاية ما قلت لنفسي مستحيل ترجعِ.

قالت:

- وأديني رجعت أنا كما كنت مستنيه رجوعي.

دار الحديث بينهما كنسيم البحر حتى أخبرته أنها طلعت الجبل، تغيرت ملامح وجهه ثم انزوي تحت الشجرة ولاذ بصمت ينطق بالكثير، يبدو أن العزبة نسجت مسافات صعب أن يجتازها الحب وحده فها هى تفكر وتنفذ حتى بدون أن تأخذ رأيه.

أدركت ما جال بخاطره، جلست إليه وقالت برقة:

- حقك عليّ، أنا نسيت كل حاجة حتى نفسي.

عقب:

- لكن أنا عمرى ما نسيتك ويا ريت تقدري وجودي حتى بحكم عملى عندكم.

وضعت يدها على فمه بحنان، وأرادت أن تغير الموضوع فقلت:

- كنت فاكره إن مطاريد الجبل كلهم مجرمين، لكن فعلاً "يا ما فى الحبس مظاليم" أنا قابلت رجال كل واحد منهم ورآه بطولة.

لم يطاوعه قلبه أن يتجاهلها فتواصل معها وسألها عما وصلت إليه فأخبرته أنهم يتوقعون أن السر كله مع عطية ولابد من التواصل معه..

بدت الحيرة على وجهه ولم يدر كيف يخبرها أن الخط الذى تبحث عنه قد قُطع.

سألته:

- أنت لسه زعلان.

- أنا مقدرش أزعل منك أبداً لكن عطية اختفي.

زاغت عيناها والتزمت الصمت لكن الأفكار تتقاذفها فها هى تراوغها الأحداث حتى شعرت أنها فى جب عميق لا تدري كيف النجاة، حدثت نفسها "ها أنتِ يا فريدة فى بلدك كما كنت تتمنين، أليس هذا حلمك أن تثاري لأبيك، ها قد صار الثأر لأبيكِ وأخيكِ، أين عزمك وإصرارك.. لن تنهاري.. لن تستسلمي فى أول جولة، هذه حربك.. لن تخسريها.

غابت بأفكارها بعيداً وهى لا تدري بنظرات سلمان لها خليط من الحب والشوق على قدر سنين البعاد مع مزيد من الشفقة لحملها الثقيل، هو أيضاً إصراره أضعافها فلن يدعها تخوض الحرب بمفردها إنها حربهم جميعاً، حياتهم، حلمهم، أن يطهر العزبة ويأخذوا بيد الفلاحين الغلابة.. قد آن الأوان لن يتنازل، ولن يترك فريدة صنو روحه، لا يري إلا عينيها السوداوين الممتلئتين إصرار تتحديان من يحاول الاقتراب، فريدة ذات العقل الرصين بحديثها العذب الرقيق بقلبها الغض الحنون حتى عذابها الذى لم يفارق أيامها منذ نعومة أظافرها.. لن يدعها هى وبلده توأمان لروحه لا فكاك منهما.

عادت فريدة من سفر أفكارها لتجد سلمان يبحر فى مقلتيها بلا مجداف، لم تحاول أن تخرجه مما هو فيه، أحاسيس ومشاعر طافت قلبها لها سنين طوال، كثيرون هم من حاولوا الاقتراب لم يجدوا إلا قلعة منيعة إلا هو رفيق الطهر والبراءة، من يوم أن أنقذ عمرها صار ملك له، أتري تجود الأيام بما ضنت به سنين طوال، ولِمَ لا.. أليس من حقها أن تحلم ويصير الحلم واقعاً.

قطع صوتها صمت لم يدريا كم غفلها.

- الوقت أتأخر لازم أرجع البيت.

وفى الطريق أظهر سلمان استياءه لأن يده مغلولة لا يستطيع أن يمدها بالوجه الذى يرضيه وحمدان غدار لن يهدأ ثم استجمع نفسه وقال:

- أنا عارف الظروف لكن لازم نتجوز مش هاقدر استني لما حمدان يؤذيكِ ومش قادر أقرب وأنتي لوحدك أحساس بالعجز والقهر هيقتلني إلا لو كان الفكرة ذاتها مش مناسبة للدكتورة فريدة بنت الحسب والنسب.

ردت عليه:

- فريدة هى فريدة وأسأل قلبك شوف هيقولك أيه.

وصلا للدار وكان خلف الشجرة ينتظرها رجل يخفي وجهه خلف كوفيته، أدركت أنه من طرف الحاج شعلان، لم يتركها سلمان حتى يعلم ما يدور قال الرجل:

- عطية مش موجود بالصعيد كله ومش أحنا اللى حرقنا أرض حمدان وقبل أن ينصرف قال لسلمان:

- أوعاك تسيب فريدة لوحدها خليك ظها وخلى بالكم من الست نفيسة ليس لها غيركم.

اختفي الرجل سريعاً قبل أن يراه أحد وكان كلامه كأنه رسالة لفريدة لكي تفكر فى عرض سلمان بضرورة أن يتزوجا فى أقرب وقت.

دخلت الدار وقد غشاها الحزن فهي إلى الآن لم تصل لشئ.. توضأت وصلت واستخارت ربها فيما عرضه سلمان عليها ثم ابتهلت إليه أن ينير بصيرتها ويعينها على إقامة العدل فى بلد أنحني ظهرها من الظلم.

أشرقت الشمس فامتلأت حجرة فريدة بشعاعها ودفئها فأحست بدفء يسري فى قلبها ويهدهد مشاعرها فأدركت أن اللّٰه معها وكفي به معيناً.

أجرت بعض الاتصالات بالشركة وفارس والمحامي لتطمئن على أن الأمور تسير كما يجب، ثم جلست تحت الشجرة كما كان يفعل الحاج تناولت الإفطار وفتحت مصحف الحاج وقرأت ما تيسر لها من القرآن ثم جلست فى صمت ترقب الحمام الذى يطير حول الشجرة وكأنه فتقد صوت الحاج وتلاوته يومياً فى هذا المكان الذى يفيض برائحة أنفاسه.. وفى المساء ركبت الحصان لتذهب إلى دار الحاج صالح كما وعدت سلمان وهى أول امرأة بالعزبة تركب حصان وتتجول به فى طرقات العزبة ومن يراها منهم من يتعجب لقوتها وجرأتها ومنهم من يرى أنها

الملاذ والخلاص من جبروت وغطرسة حمدان وأن نهايته ستكون على يديها.

كان سلمان بانتظارها على باب الدار، ربط حصانها ولم يستطع أن يقول الكثير يكفيه ما تنطق به عيناه.

رحب بها الحاج صالح وأمر بوضع العشاء فامتلأت المائدة بالكثير من حمام محشي وفطائر وغيره، لم تأكل فريدة إلا القليل كما تعودت فقد نسيت أكل الصعيد ولا تستطع أن تتجاوب معه فمن تركب الخيل وتجيد الرمي لا مجال لها فى هذه الموائد الدسمة، شئ وحيد لن تتركه فريدة الشاى الصعيدي، وأثناء شرب الشاي بدأ الحاج صالح حكاياته عن البلد وأهلها وهى تجلس إليه لتسمع منه ما لا تعرفه، كسا وجهها علامات الدهشة عندما أخبرها أن درويش هو من حرق أرض حمدان وقبل أن تسأل حكي لها حكايته "كان درويش فى شبابه يطلقون عليه سبع الليل قوى البنية مفتول العضلات، يعمل خفيراً عند العمدة أحب فتاة اسمها وردة وهى وردة بحق، كانت خادمة فى سراية جد حمدان لعنه اللّٰه، وكان درويش يتفجر وطنية، حيث يقوم بتصنيع القنابل اليدوية ليمدها للفدائيين، اكتشف العمدة أمره فأبلغ الإنجليز عنه قبضوا عليه وأذاقوه العذاب ألوان ليخبرهم عن مكان الفدائيين فلم يستجيب لهم وصمد كالجبل، اقترح جد حمدان بخبثه أن يعذبوا وردة

أمامه فقاموا بذلك فعلا ثم حاول جندي إنجليزي أن يعتدي عليها أمامه، جن جنون درويش وقطع السلاسل الحديدية وهجم على الجندي وقتله، لمحت وردة جندي آخر سيطلق الرصاص عليه فافتدته بنفسها وماتت فى على صدره، صار كالثور الهائج، خطف رشاش من جندي إنجليزي وأخذ يحصدهم كالفئران وهم يجرون من مذعورين من أمامه، وبعدها لم يعرف أحد له بيت وترك لحيته وصار يدور فى شوارع العزبة وعصاه فى يده وكل من يراه يحسبه مجنون لكن فى الحقيقة أن عقله يزن بلد بأكملها".

عقبت فريدة:

- كل واحد فى العزبة وراءه حكاية أغرب من الخيال، أنا بلوم نفسي إني سمعت كلام الحاج اللّٰه يرحمه وفضلت بعيده كل السنين دى.

قال الحاج:

- يا بنتي عزبة الفوارس لها تاريخ يشرف ومشوارها مع محاربة الظلم طويل بدأه أبوكِ وأخوكِ وأنتِ وفارس لازم تكملوه.

اعترض سلمان:

- وأحنا فين يا حاج أيدينا بأيديهم دى قضيتنا كلنا، دى بلدنا ومش هيحميها إلا ولادها.

عقب الحاج:

- معك حق يا بني يا ريتني كنت بصحتي كنت قدرت أساعدكم ربنا معاكم وشدوا حيلكم المشوار طويل يمكن يأخذ سنين ظلم أكثر من ثلاثين سنة مش هتقضوا عليه فى أيام ويمكن يأخذ منكم عمركم كله لأجل ما أولادكم تقدر تعيش فى أمان وتتنفس عدل وحرية.

جلسا سوياً لوضع خطة لإعادة الحياة لأهل العزبة حتى تسكن الطمأنينة قلوبهم وتطرد الخوف.

انطلقا سوياً كل على حصانه يجوبا القرية لدعوة الناس إلى دار الحاج محمد بعد صلاة الجمعة وكان درويش يجرى بعصاه يطرق الأبواب منادياً.

- أصحوا يا بلد خلاص دا وقت العمل مفيش نوم تأني أوعاكم تخافوا بعد اليوم.

بعد الصلاة الجمعة توافد الكثير من أهل العزبة على دار الحاج وعلى وجوههم السعادة فمنذ وفاة الحاج لم يدخل أحد الدار .

تحدثت فريدة وطلبت منهم أن كل من له أرض لا يبيعها ولو بأضعاف ثمنها ومن يحتاج لمال يلجأ إليها وألا تخرج البهائم خارج عزبة الفوارس ولا تباع لأى شخص غريب عن العزبة.

أما سلمان فقد طلب من الشباب أن يحرصوا على إتمام تعليمهم ووعدهم أن يساعد كل من يحتاج مادياً حتى ينتهي من تعليمه.. وكل يوم جمعة سيجتمعوا بجنينة الفوارس ليعلمهم الرماية حتى يحرسوا العزبة من اللصوص والبلطجية وقال:

- من اليوم لا حمدان ولا غيره هياخذ شبر من أرضنا.

أما فريدة فوعدت النساء أن تتلقي بهم كل يوم جمعة بالدار تسمع مشاكلهم وتزيد من وعيهن وأن تفتح دار لمحو الأمية لهن وقالت:

- أوعدكم أن تصير عزبتنا يتحاكي بها كل أهل الصعيد.

بعد الاجتماع ذهباً معاً إلى دار الست نفيسة فى الناحية القبلية من العزبة سمعت صهيل الحصان خرجت لتري من أتي أمام دارها، نزلت

فريدة من على الفرس وألقت عليها السلام، نظرت إليها بإمعان ثم قالت:

- فريدة الفوارس.

ضحكت فريدة فاحتضنتها الست نفيسة وقالت:

- حمد للّه على السلامة يا غالية يا بنت الغالي وأخت الغالي، جيتي فى وقتك، البلد كلها مستنياكِ، إن شاء اللّه الفرج يكون على أيدك.

قالت فريدة:

- بأذن اللّه يا خالة لكن لازم تعيشي معايا فى الدار، وأرضك هنزعاها وأحفادك يتعلموا بالمدرسة من اليوم هم مسئوليتي.

ردت نفيسة:

- أحفادي يرحوا المدرسة يبقى كتر خيرك، لكن أنا مقدرش أسيب داري ولا أرضي الموت أهون عليّ، أنا هنا ونفسكم معايا وأوعدكم لما أغلب آجي أسلمك الأرض وأقعد معاكِ.

- خلاص يبقى الأنفار أنا هابعتهم يزرعوا أرضك وأنت تشرفي بس مفيش شقى تاني يا خالة.

كان يوم فريدة شاق لكن منحها إحساس كانت تسعي إليه من سنين وأمل ظل يراودها فى أحلامها ولد الآن وبدأ يخطو خطواته الأولي على أرض الواقع.

بلغ حمدان ما يحدث بالعزبة فتيقن أن الأمور قد تعقدت وأوشك أن يفقد سيطرته على العزبة ولابد له من خطة بديلة.

بقى على المولد النبوي الشريف يومان اتصلت فريدة بفارس فى الفيلا وطلبت منهم أن يحضروا جميعاً للعزبة ليذبحوا الذبائح ويطعموا الفقراء كما كان يفعل الحاج.. دخلت حجرته بعد أن أنهت المكالمة رأت وجهه على سجادة الصلاة مبتسماً وسمعته يقول لها:

- أنا راضي عنك يا فريدة ومعاكِ بقلبي، لكن زعلانِ قوى.

سألته بحزن:

- ليه يا حاج أنا مقدرش على زعلك.

قال:

- مش عاجبني قعدتك لوحدك، سلمان بن حلال، والأيام بتجري لازم تتجوزي عشان تلحقي تشوفي عيالك.

قالت:

- مش قبل ما أعرف الحقيقة وأطهر البلد من حدان واللى معاه.

- سلمان وجوده جنبك هيساعدك كتير أيدك فى أيده، المشوار طويل مينفعش تمشيه لوحدك، دى بلد بحالها يا بنتي لازم أيديكم وقلوبكم تتحد وإلا الظلم هيفضل راكب.

أختفي وجهه من على السجادة، قرأت له الفاتحة ثم اتجهت إلى غرفتها قرأت بعض آيات من القرآن واستسلمت للنوم.

فى الصباح علمت لمرض الست نفيسة ووقوعها مغمي عليها فى وسط أرضها فذهبت إلى دارها وأصرت أن تأخذها دار الفوارس هى وأحفادها، أخذت فريدة حفيدة الست نفيسة أمامها على الحصان وركب الباقون الكارته، وعندما رأوهم أهل العزبة كانوا يدعون لفريدة بصوت عالي إلا مغاوري الذى أسرع إلى حمدان ليخبره بما حدث، فعض الرجل على شفتيه غيظاً فقد انقلبت كل حساباته، لكن لن يستسلم، لن تكون نهايته على يد امرأة، لن يتنازل عن حلمه أن تصير كل أطيان العزبة ملكاً له حتى لو رواها بدماء كل الفوارس وقال متوعداً فى سره (هنشوف يا فريدة مين فين نفسه أطول من التاني).. أرسل فى طلب

سنية أرملة عطوة، حضرت على عجل فهي امرأة انتهازية متطلعة للثراء كانت تنتظر الفرصة وها هي قد أتت إليها.. قال حمدان:

- عاملة أيه يا سنية؟ محتاجة أي حاجة؟

ابتعدت عنه وهندمت جلبابها الأسود وقالت:

- مستورة والحمد للّه، والبركة فيك يا بيه ما نتحرمش منك.

- أنتِ تستحقي أكثر من كده، ربنا كان راضي على عطوة لما رزقه بكِ.

قالت بأسي:

- ملهوش لازمة الكلام شبابي اندفن بموته.

اقترب منها وقال:

- أنت تستحقي أجدعها راجل.

ابتعدت خطوة ولملمت نفسها قائلة:

- خير يا بيه.

اقترب منها ثم رفع غطاء رأسها وأمسك بيدها قائلاً بصوت خفيض:

- حرام عليكِ معقولة مش فاهمة أنا على نار.

لانت فى يده كقطعة البسكوت حين يلمسها اللبن.

قالت باستكانة:

- أنا تحت أمرك.

تيقن أنها ابتلعت الطعم، نظر إلى شعرها المسدل وهو أسود كخيوط الليل وعينيها ذات الرموش الحائرة وجسدها الملفوف ذي النهدين الثائرين، سال لعابه وصدق نفسه، ولِمَ لا فما المانع أن يستمتع بهذا الجمال الذى يناديه.

اضطر حمدان لتغيير خطته، مهما حدث لن يُفرط فى سنية وليذهب فارس إلى الجحيم، اختمرت الفكرة فى رأسه وهو لا يدري أن سنية هى من خططت ليقع هو فى شباكها، قال:

- أنتِ هتشتغلي عندي يا سنية فى الدار.

ردت بمسكنة: - اللى تؤمر به يا بيه.

استقرت سنية بالحجرة القبلية من داره واكتفي حمدان بفكرة تسميم بهائم الفوارس فأمر مغاوري بإرسال من يقوم بذلك.. رد مغاوري:

- ومين يقدر يقرب لدار الفوارس؟

صاح حمدان فيه:

- يا غبي رش كام حزمة برسيم بالسم الهاري اللى يأكل مصارينك ولما بهايمهم تروح الغيط واحد غيرك يرمي لهم البرسيم ولو أتمسك يخرس خالص حتى لو اضطريت أنت تخلص عليه.

انتهي حمدان من أوامره فأسرع إلى حجرة سنية، رآها ترتدي ثياب تبُدى من مفاتنها أكثر مما تُخفى وكأنها ليست من أقاصي الصعيد، نظر مبهوتاً وقال:

- يخرب بيتك يا عطوة، اللّٰه يحرقك، كان عندك كل الجمال دا..

هوى عليها كالثور الهائج تمنعت بدلال فأعطاها كردان ذهب ووعدها بالمزيد لو اهتمت به.

رأى حمدان من سنية ما لم يره فى حياته، خرج من عندها لا يدري بما حوله ولا حتى نفسه، بعد خروجه نظرت إلى المرآة وكردان الذهب على صدرها المكتنز، ابتسمت قائلة:

- كلها أيام وتبقي خاتم فى صباعي يا حمدان وأنا أبقي ست الدار.

-١٠-

عادت الروح إلى دار الفوارس وضجت بالحياة حتى شجرة الحاج أخضرت وعلا صوت الحمام عليها وكأنهم شعروا بدفء الدار لما عاد أهله إليه للاحتفال بالمولد النبوي احتضنت فريدة فارس قائلة:

- وحشتني يا ابن الغالي ربنا يعلم فراقك ضانيني، ربنا يقرب البعيد.

ثم سلمت على الحاجة حليمة وقبلت رأسها ويدها وقالت:

- تعبتك معايا يا حاجة.

ردت:

- أحنا اللى لخبطنا حياتك وشيلناكِ الهم وتركتي شركتك وقعدتي فى العزبة.

- كان لازم أرجع لناسي وبلدى ربنا يقدرني وأرجع الحقوق لأصحابها واطهر البلد من الظلم لأجل ما يرتاح الحاج فى تربته.

ردت الحاجة حليمة:

- يا بنتي الحمل تقيل المفروض الأول تفكري فى ابن الحلال عشان يكون سندك وكمان أشوف عيالك قبل ما أموت.

- كله بأوانه يا ماما الحاجة.

سلم محمد بن فارس عليها قائلاً:

- طبعاً أنا عارف إنك جدتي لكن حرام أقولك كده عشان لما يجي العريس ما يقولش أحنا ضحكنا عليه.

قالت الحاجة:

- عيب يا محمد أتكلم واجدتك كويس.

رد:

- جدتي أيه دى عروسة زي القمر لو شفتها فى القاهرة لازم أعاكسها طبعاً.

ضحكت فريدة وقالت:

- أنت اللى عريس إيه رأيك تأخذ الثانوية ونجوزك، أبوك أتجوز بعد الثانوية وكان بيروح الجامعة وهو متجوز.

رد:

- لا يا عمتي أدخل الكلية وأتخرج واشتغل وأفرح بشبابي وبعدين نفكر بقى فى الزواج.

قال سيف:

- يا عمتي جدتي عندها حق نفرح بك الأول وتخلفي ولد حلو شبهي طبعاً.

ردت حبيبة:

- لا بنت حلوة زي كده عشان ادلعها آخر دلع.

ردت فريدة:

- ربنا يخليكم لي أنا مش حسيت إني عايشه غير لما نورتم الدار.

ذهبت فريدة مع فارس إلى مزرعة البهائم ليختار فارس العجول التى ستذبح وبعدها أمر العاملين بالمزرعة عدم خروج أي مواشي للأرض لانشغالهم فى ليلة الذكر.

كن سلمان يشرف على السرادق واتفق مع المنشدين وحضروا وبدأو فى ابتهالات المدح وكان لكل دوره هنية والست نفيسة يشرفان على إعداد الطعام والحاجة حليمة تقوم بالتوزيع وفرية وفارس وسلمان

يقفون فى السرادق يستقبلون الناس ويجلسونهم، أما سليم الغلبان ودرويش فقد انشغلا بأمر آخر فسليم يحرس أرض الفوارس ودرويش جعل نفسه ظلاً لفارس مخافة أن يأتي الشر من أى مكان، فيدور بعينيه كالصقر فى جميع الاتجاهات.

وفى منتصف اليوم رأي سليم رجلاً غريباً يقترب من الأرض حاملاً على ظهره الكثير من حزم البرسيم وعندما لم يجد البهائم هم بالعودة، أسرع إليه سليم وأمسك بتلابيبه حاول الرجل الفرار بلا فائدة فتيقن أنه مقتول لا محالة، أن لم يكن بيد فارس أو سلمان فبيد حمدان.

أسرع سليم إلى سلمان وأخبره بما حدث، مال سلمان على فريدة وأخبرها، نادت على حسن الخادم وقالت له:

- أفتح حجرة خزين العلف وخد الراجل اللى مع سليم وأربطه بالحبال لغاية ما أجليك.

شعر فارس بأن هناك شيئا غريباً لكن لم يستطع أن يترك الضيوف.

رأت فريدة البرسيم شمته فأدركت أنه مسموم.. ذهبت إلى حجرة العلف ومعها سلمان وجدت الرجل يرتعش من الخوف، كانت قد أحضرت البندقية من حجرتها رفعتها فى وجهه، صرخ الرجل:

- مظلوم واللّه يا ست هانم سامحيني.

ردت:

- أوعى تفتكر إني قلبي طيب وأنك هتصعب علىَ، ورب العزة أنا ها خليك تتمني الموت لو ما قلت مين وراك.

قال سلمان:

- أنا أعرف أخليه أزاي يتكلم.

بكى الرجل وهو يردد:

- مظلوم واللّه مظلوم.

خرجت فريدة من الحجرة فقال حسن للرجل:

- السكوت مش هينفعك لو أتكلمت الست هتحميك هى دلوقتي اللى بتأمر وتنهي هنا ومش بعيد تأمر بقتلك.

رأت فريدة رجلاً ينتظر بعيداً عن السرادق فأدركت من هو ذهبت إليه ودرويش كظلها وراءها بخطوتين، أعطاها الرجل ورقة ثم اختفي، قرأت فريدة الورقة ثم مزقتها بعصبية.. لاحظ فارس كل ذلك فأدرك أن هناك أمراً ما لا يعرفه ذهب إليها ليهدئها:

- نؤجل كل حاجة لغاية ما الليلة تخلص يا عمتي.

قال فارس ذلك والأفكار تغلي برأسه وافتقاد والده يمزق قلبه وأرضه التى تشتاق لعزمه ولا درى متى سيرجع لها وحصانه الذى كادت أن تدمع عينيه حين رآه وكأنه يلومه على تركه له فأعطاه قطعة سكر فى فمه ومسح على ظهره والحصان يرفع ذيله ويمسح رأسه فى وجه فارس وفوق ذلك الشركة التى تحمل اسم الفوارس فى القاهرة وسلسلة أعمال عمته التى تفتح الكثير من بيوت الشباب صار كله فى رقبته وهمه الذى لا يفارقه بسبب قلقه على عمته لجلوسها بمفردها فى وجه حمدان، شعر فارس أن الدنيا كلها تزاحمت على رأسه، لقد تعدت عمته الثلاثين ولم تتزوج، الطريق طويل ربما يستمر سنين وأثناء دوامة تفكيره رفرف سرب حمام فوق رأسه واهتزت أوراق الشجرة الطيبة فأنشرح صدر فارس لما نوى عليه لحين انتهاء قلقه.. لابد أن يكمل القطار طريقه حتى يكملوا رحلتهم فهي قدرهم لكن لا مانع أن يركب معهم من يشاركهم الرحلة ويا حبذا لو كان قوى أمين.

اختمرت الفكرة فى رأس فارس خصوصاً بعد أن عرش سلمان عليه الأمر باتصاله به تليفونياً قبل حضوره إلى العزبة بأيام ووعده أن يرد عليه عندما يأتي للعزبة.

انتهت الليلة على خير وقبل أن يغادر سلمان الدار دعاه فارس للشاي غداً بعد صلاة العشاء ليتموا حديثهم الذى بدأ فى التليفون، انشرح صدر سلمان وانفرجت أساريره وقال:

- بأذن اللّٰه لن أتأخر.

استغربت الحاجة حليمة وسألت فارس بعد ذهاب سلمان.

- خير يا بني شغلتني

رد وهو يضحك:

- أكيد خير كبير يا حاجة مش تقلقي.

وفى حجرة الحاج جلس فارس مع والدته وأخبرها بطلب سلمان ليد فريدة ردت عليه:

- الحاج اللّٰه يرحمه قال لي قبل ما يموت إن سلمان طلب أيد فريدة منه وهو موافق ووعده أنه يعرض عليها الأمر فى أقرب وقت وبعدها حصل اللى حصل.

قال فارس:

- وأنا كمان موافق يبقي نسأل عمتي قبل ما سلمان يجي بكرة بأذن اللّه.

نادي فارس عمته، دخلت حجرة الحاج وجدت الحاجة وجهها به ابتسامة غابت من يوم وفاة الحاج، قالت:

- خير يا فارس، خير يا أمي.

رد فارس:

- من غير مقدمات سلمان طاب أيدك منى وأنا موافق وكمان دى كانت رغبة الحاج اللّه يرحمه ولا أنتي يا عمتي فى حد تاني فى مصر عايز أعرف لأني هأرد عليه بكرة بإذن اللّه.

ردت:

- مفيش حد هى الظروف صعبة دلوقتي.

عقب فارس:

- ما هى الظروف السبب إني مستعجل أدامك خيارين إما توافقي على سلمان أو أنا أسيب القاهرة وأرجع أقعد معاك هنا أيدي

بأيدك، مش معقول نسيبك لوحدك فى ومش حمدان وزبانيته.

قالت:

- لا طبعاً لازم تكون جنب ولادك ترعاهم وترعي مصالحنا هناك.

فارس بحزم:

- يبقى بعد أذنك يا عمتي كتب الكتاب والدخلة بعد ميعاد الحاج يعنى أسبوعين من دلوقتي ومش راجع مصر من غير لما كل حاجة تخلص.

لم تستطع فريدة أن تعترض وذهبت إلى حجرتها، خلعت الملس وفكت رباط شعرها فانسدل على ظهرها، وهى ترث من أمها شعر ذهبي حرير كسلاسل الذهب وعنين زرقاوين وجسد ممشوق احتفظت بقوامه لممارستها الرياضة وركوب الخيل من يراها يظن أنها أصغر من عمرها بعشر سنوات، تحسست ملامح وجهها لا تجاعيد ولا أثر للسنين، أخرجت فستان من دولابها.. اشتاقت لفساتينها فمنذ الخبر المشئوم وسفرها للعزبة لا تردي خارج الدار إلا الملس وعاهدت نفسها ألا تخلعه وهى خارج الدار حتى تأخذ بثأرها بل ثأر العزبة كلها تحسست نهديها ثم خصرها.. لفت لترى ساقيها ساورها بعض القلق، ألا يراها سلمان قد

كبرت.. هل هى الزوجة وأم الأولاد.. وأجابت "أكيد طبعاً إلا ما كان انتظر كل هذه السنين، ضحكت فظهرت فلجت ثغرها الذى يشبه حبة الرمان.

وفى اليوم التالي حضر سلمان بعد صلاة العشاء ومعه عشرين ألف جنيه وبعد شرب الشاي سأل فارس:

- يا ترى خير إن شاء الله.

ضحك فارس وقال:

- طبعاً خير وأنا مش هاطمئن على عمتي غير وهى معاك ودي كانت وصية الحاج الله يرحمه.

أخرج سلمان النقود من جيبه وقال:

- طبعاً بنت الفوارس ما تقدرها كنوز الدنيا.

رد فارس:

- أحنا أهل يا سلمان.

عقب:

- دا شرع ربنا والجهاز عليّ زى ما تختار والشبكة زى ما تحب.

قال فارس:

- لي شرط واحد أنت عارف البيت هنا دورين والدور اللى فوق كان الحاج بنيه أصلاً لفريدة ومش معقولة دار الفوارس تتقفل يبقى أحنا نجهز الدور اللى فوق لك أنت وفريدة وإحنا لنا الدور الأرضي.

لم يستطع سلمان أن يرفض فليس من المعقول إغلاق دار الفوارس، تمت قراءة الفاتحة ومنعت فريدة الست نفيسة وهنية من الزغاريد وقالت لن ترن زغرودة فى دار الحاج إلا بعد أخذ ثأرنا.

أصرت فريدة أن تصطحب الحاجة حليمة معها فى شراء الشبكة والجهاز واشتري فارس لعمته حجرة السفرة هدية واشتري سلمان باقى الجهاز وأسس الدور الثاني كأحسن فيلا بالقاهرة لتليق بابنة الفوارس.

مر يوم العرس على خير كان سليم ودرويش يحرسون دار الفوارس ورجال من طرف الحاج شعلان يحرسون أرض الفوارس فلم يستطيع حمدان ورجاله أن يفعلوا شيئا.

رفضت فريدة أن تسافر خارج العزبة لقضاء بعض أيام كأي عروس قائلة لن تشعر بفرح إلا بعد القضاء على حمدان..

أقامت الأسرة معها أسبوع بعد العرس للاطمئنان عليها ثن عادوا إلى فيلا الفوارس بالمهندسين وبقى بالدار فريدة وسلمان بالدور العلوي والست نفيسة وأحفادها بالدور الأول هم وجميع الخدم.

شرعت فريدة فى بناء مدرسة متكاملة من الحضانة إلى الثانوية وخصصت مكان لفصول محو الأمية للنساء وقالت: [هذه أول ضربة رمح فى حربي الفساد والجهل أرض خصبة للظلم ولصنع الطواغيت].

كل ذلك وحمدان غارق فى بئر من العسل المسموم مع سنية تعطيه ما يلهث وراءه وتأخذ منه كل ما تريد حتى أنسته العزبة بمن فيها.

أدركت أم سالم ما يدور بالحجرة القبلية، تأججت النار بداخلها حتى صارت بركان أهوج، أغرقت دموعها مجلسها، تذكرت يوم تزوجت حمدان وهى فتاة غضة صحيح هى ليست بارعة الجمال لكن من أفضل فتيات العزبة جمالاً ونسباً، لم ترى منه منذ اليوم الأول إلا قسوته وإهماله لها، لم ير أنوثتها قط ولم يحفل يوماً بها كل ما أهتم به طوال سنينها معه هو الأطيان والأموال والانتقام من الفوارس، سرق سنين عمرها لم تكن سوى امرأة ترعى البيت وتنجب الأولاد.. ثلاث بنات ماتوا فى صغرهم ربما من دعوات المظلومين عليه.. ثم رزقها اللّٰه بسالم واستجاب لدعائها رفقاً بها وحفظه لها.. صار بلسم حياتها.. قهره أبوه

كما قهرها لم يتحمل فتزك أبوه وهرب، هى الخاسرة الوحيدة فها هى قد أبيض الشعر وانحنى الظهر ورحل سندها، وحمدان لا يحفل بها بل سجنها بالدار وعين عليها من يمنعها أن تري أحد أو تخرج من باب الدار، لكن بعد اليوم لن تجلس مهيضة الجناح وامرأة أخرى تسلبها بيتها وزوجها وكرامتها، كفاها ما ضاع منها، بعد اليوم لن تكون جبلاً ساكناً بل طوفان ثائر ولتسكب نيران مرارة السنين، ليس حباً لحمدان بل ثأراً لكرامتها ولابنها الذى لا تعلم عنه شيئا.

وذات ليلة من ليالي حمدان الحمراء نادت على الخفير وأغرته ببعض المال وطلبت منه أن يدعها تخرج من حجرتها لتفي بنذر عليها لعلها تعرف مكان ولدها، رق الخفير لحالها أمام إغراء المال بعد أن طمأنته أنها ستقول لحمدان إنها أريته لشراء دواء لها.. ذهبت مباشرة للحجرة القبلية، رأت حمدان كأنه رجل لم تعرفه وسنية ترقص بثوب أحمر يظهر نهديها مفتوح عند فخذيها، وحمدان يدور على ركبتيه بين قدميها تفور فحولته من كل ملامح جسده، ارتمت سنية على الأرض وارتمي فوقها، لم يدري إلا وأم سالم تبصق على وجهه، على الدم فى رأسه أمسكها من شعرها وسحبها على الأرض حتى حجرتها ولم يترك مكاناً فى جسدها لم يوجعه بالسوط ثم تركها لا تقوى على الحركة وأغلق الحجرة عليها بالمفتاح.

أتي الحارس مرتجفاً قائلا:

- السماح يا بيه طلبت منى اشتري لها دواء وأنا عبد المأمور.

ضربه بالسوط قائلا:

- أنا هنا بس اللى أعطي الأوامر.

بكت أم سالم قهرها وألمها وكرامتها التى دهسها وابنها الذى هرب منها وعمرها الذى ضاع فى كنف رجل لا يستحق.

أما سنية بعد هذا الموقف تمنعت على حمدان وأصرت ألا يقربها إلا بعد أن يتزوجها فى العلن وإلا تركت له الدار بل تركت العزبة كلها من أجل الخوف من الفضيحة.

جلس يفكر فى حل لمشكلته فقد أدمن سنية ولن يستطيع الاستغناء عنها ومن جهة أخرى أم سالم ستقوم بفضحه فى العزبة كلها برم شنبه كعادته وضحك ضحكته الخبيثة ثم أرسل فى طلب سائق نقل يدعي (هنداوي) ينقل له بضاعة لا يعلم عنها شيئا، وطلب منه أن يخلصه من أم سالم.

قال هنداوي:

- يا داهية سودة، لا يا بيه أنا سواق، أوصل البضاعة وأخد أجرتي، أنا عمري ما قتلت فرخة.

قال حمدان:

- دى كشفت سرنا والكبار ما بيرحموش، يا روح ما بعدك روح..

حصر حمدان السائق فلم يجد مفر من تنفيذ ما طلبه منه وفى المساء صعد حمدان إلى أم سالم مرتدياً ثوب العطف والود، لامها على خروجها بدون أذنه، صرخة فى وجهه:

- طلقني يا حمدان.

قال وقد وصل إلى ما أراد.

- أنتِ طالق بالثلاثة – ثم رمي لها بعض المال قائلا: - دول عشان العيش والملح والعشرة اللى كانت بينا، يمكن تحتاجي لهم فى طريقك، ولو حبيتي ترجعي لبيتك الدار مفتوحة أنتِ برضه أم سالم.

استيقظت العزبة فى الصباح على صوت درويش:

- الظالم ظلمه زاد وفاض، أهي حمامة ادبحت يا ولداه يا تري مين اللي عليه الدور يا بلد شبعت نوم.

انتشر خبر أن أم سالم وجدت على الطريق السريع غارقة فى دمائها وأن شهود عيان قالوا أن سيارة نقل كبيرة مسرعة صدمتها وهربت لكن يبدو أن الناس بالعزبة قد تعودوا على سماع هذه الأخبار بدون أن يتحرك لهم ساكن، الدم يراق وتشربه الأرض وكأنها لا ترتوي وتنتظر المزيد، حتى من يدرك الحقيقة يكتمها بين حنايا صدره خوفاً ورعباً كحال الخفير المحبوس بمخزن الفوارس فمنذ أن تم حبسه وهو يقتله الخوف مراراً كل يوم لكن لم ينطق بحرف واحد، وفى صباح يوم نزلت فريدة تحمل البندقية وسلمان زوجها يحمل طبنجته إلى الحارس بالمخزن صوبت فريدة البندقية إلى رأسه قائلة:

- أنا صبري نفد أما تنطق أو عيار فى رأسك.

قال سلمان:

- لا يا دكتورة، أنا هاشرح جسمه نثاير لغاية ما يتكلم.

ارتجف الرجل قائلاً:

- ها قول يا ست هانم، هانطق يا بيه، مغاوري طلب مني أعمل كده وقالي دى أوامر حمدان بيه وأنا عبد المأمور يا ست.

صرخت:

- كلب جبان، أنت عبد لله وحده.

بكى الرجل وتساءل:

- هتقتليني يا ست هانم.

ضحكت قائلة:

- أخيراً وقعت تحت أيدي يا حمدان يا ويلك يا ظلام ليلك.

خرجت مسرعة إلى حصانها لحقها سلمان قائلاً:

- أهدئ يا فريدة لازم أعرف بتفكري فى أيه إحنا كيان واحد همك هو همي ولا أنتِ شايفه إني مقدرش أحميكِ.

وقفت أمام إسطبل الخيول وقالت برقه:

- أوعى تقول كده أنا اخترتك من دون الرجال كلها لكن الثأر ثأري.

رد سلمان:

- وثأرك ثأري لا دا ثأر بلد بحاله، لازم نتحرك سوا بعد ما نفكر سوا.

ركب كل منهما حصانه وانطلقا إلى الجبل كان حمزاوي فى استقبالهما وشعلان فى انتظارهما، جلسوا واستمر الحديث ساعتين وعلم شعلان لما تريده فريدة أن تفعله ووعدها أن يساعدها.

-١١-

عادت فريدة للدار وقبل أن تصعد لحجرتها أصابها دوار فأدركها سلمان وحملها بين زراعيه وصعد بها إلى حجرتها، وضعها على السرير وقال:

- يا نور عيني مش معقول كده بالراحة على نفسك.

ضحكت وقالت:

- ما تخافش عليّ أنا فريدة الفوارس واللى حصل عادي جداً بالنسبة لواحدة فى ظروفي.

نظر بحب وقال:

- تفصدي إنك حامل.

قالت بدلال:

- مبروك عليك ولي العهد.

حملها سلمان بين ذراعيه ودار بها فى الحجرة ثم وضعها قائلا:

- ربنا مّن عليّ بك وزاد فضله بإذن اللّه تكون بنت فى جمال أمها.

ردت:

- لا ولد شبهك اسمه على اسم الحاج أخويا.

- كل اللي يرزقنا به ربنا خير، المهم لازم ترتاحي ومفيش ركوب حصان لغاية ما تقومى بالسلامة.

قالت:

- أنت ناسي أني بطلة رماية وركوب خيل وعارفه أنا بعمل أيه وأن شاء اللّٰه ربنا معانا.

أتي الليل يجر ذيوله حمل سلمان بندقيته وتسلل إلى أرض الفوارس من طرق مختلفة ليس بها أحد وكان بانتظاره بعض رجال شعلان، وقبل أن تشرق الشمس كانت بهائم حمدان صرعي والنار تأكل أرضه.

هاج حمدان وأخذ يضرب كل من بالدار بسوطه وإذا ببابه يدق بشدة فتح مغاوري فكان سلمان يمسك بتلابيب الخفير الذى أرسله لقتل بهائم الفوارس ومن خلفه فريدة، هرول حمدان نحو الباب.

قال سلمان:

- شفت اللي يقرب من عرين الأسود يحصل له إيه أنا قلت أنت مش أد الفوارس حتى لو كانوا حريم لأن حريم الفوارس رجاله برضه.

أنكر حمدان ما قاله الخفير، قالت فريدة:

- خفيرك كان محبوس عندي، وإياك تقرب لشعره من رأسه.

قال سلمان:

- العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم يا حمدان، والأيام بيننا والزمن طويل عمرك شفت ضبع غلب أسد وأخذ عرينه يا مسكين.

حمل سلمان فريدة ووضعها فى الكارتة وانطلق كالسهم وحمدان يقف مكانه مذهولاً وخفره من حوله كأن الشلل أصابهم، كادت الصدمة أن تذهب عقله وقد بات لا يدري ماذا يفعل ليقف فى وجه فريدة وأسدها الهصور.

وفى المساء دخلت فريدة إلى حجرة الحاج كعادتها، نظرت إلى سجادة صلاته، رأت وجهه غير مبتسم على غير عادته.

سألته:

- زعلان منى يا حاج.

قال: - أنا خايف عليكِ، حمدان شيطان، أوعي ياخدك لطريقه.

- لازم أوقفه عند حده هاخسر أيه تاني أغلى منك، ما عاد ينفع السكوت، الحق لازم له قوة تحميه، أنياب ينهش بها الباطل الدنيا اتغيرت، الظالم بيستضعف الحق لو ما ملك يد تبطش لو الحق ما مزق الباطل بأنيابه الباطل هينهش لحمه وعضمه ودا كان الفرق بيني وبينك من زمان، أبعدتني عن البلد وكانت النتيجة حمدان قتلك، أنا بقي ها قتله فى اليوم مائة مرة قبل ما أطلع روحه، لازم الناس تصحي وتحمي نفسها كفاية خذلان، الخوف قتل كل حاجة فيهم، سامحني أني خالفت طريقك، لكن دلوقتي البلد أمانة فى رقبتي وربنا هيحاسبني عليها، لو طالت الحرب سنين أنا لها لغاية ما يغور الظلم.

قال الحاج: - خلى بالك من نفسك، ربنا معاكِ وأوعي تتحركي خطوة من غير سلمان.اختفت صورة الحاج وقد تركتها يختلج صدرها بما يحمله بين جنابته من رغبة لتمزيق حمدان أرباً ومحاربة الظلم مهما كانت العواقب وبين وصية الحاج بعدم إراقة الدماء بالعزبة.

-١٢-

فارس بالشركة

دخل فارس شركة عمته وهو يرتدى بذلة زرقاء وقميص بيج وكرافتة أزرق فى بيج وكأنه لم يقض معظم عمره بالجلباب الصعيدي ولم يلبس البدلة إلا أثناء دراسته بالجامعة ثم فى بعض المناسبات التى تقتضي ذلك وغالباً تكون خارج العزبة، وعندما ينزل القاهرة ليزور عمته ويقضي بعض المصالح لأبيه رحمه اللّٰه، لفارس كاريزما خاصة رغم أنه لم يرث العيون الزرقاء والشعر الأصفر لكن بشرته السمراء تتناسق مع شعره الأسود كالليل وعينين الكحيلة بنية اللون وإلى جانب ذلك قوامه المعتدل ليس بالنحيف ولا الممتلئ، إذا هل عليك تعرف أنه مصري أصيل، النيل يجرى بين كل ملامحه.

كان فى استقباله الأستاذان عمر وبكرى اصطحباه إلى مكتب عمته فى طريقه إلى المكتب يمر على الموظفين فيهبوا واقفين بين أعجاب بعض السيدات والحسد من بعض الرجال يخفونه بابتسامة صفراء وتحية مفتعلة لم ينتبه لها فارس.

جلس إلى المكتب يطلع على بعض الأوراق المهمة وأمضي يومه يستمع إلى شرح خط سير العمل بالشركة ويتعرف على الموظفين، تم عقد

اجتماع موسع لهم جميعاً، كانت من بينهم شيري التى طالماً نبهتها فريدة ألا تسرف فى زينتها وتحتشم فى ملبسها وعندما غابت فريدة عن الشركة فتمادت هى فى إسرافها فى كل شئ، وقعت عيناها على فارس رأت فيه طموحها فتحدثت بشئ من النعومة التى لا تخلو من الميوعة.. نظر إليها فارس شذراً وقال:

- على فكرة يا آنسة خصم خمسة أيام وإنذار بالفصل، حد قالك إننا هنا فى تياترو.

بعد الانتهاء من الاجتماع عاد إلى المكتب يقرأ بعض الأوراق استأذنت شيري بالدخول وقد قررت أن تغير طريقتها وبمجرد أن جلست وقبل أن يتكلم فارس انخرطت فى البكاء ثم قالت بمسكنة:

- أنا آسفة يا أستاذ فارس.

سألها:

- اسمك أيه؟

- شيري.

- لكن الورق بيقول شيرين محمد.

- صحيح لكن الكل بيقولي شيري.

فارس بحزم:

- شيري ده فى بيتكم ومع أصحابك هنا آنسة شيرين وبعدين أكيد أنتِ عارفه أننا صعايدة، أوعي تغرك البدلة والكرافتة.. والزوم الشغل العمل بيحتاج كده، زى بالضبط مثلاً ما المحاسب بيحتاج الكمبيوتر والفلاح عندنا بيحتاج الفأس، لكن كلها مظاهر والجوهر الأساس يا رب تكوني فهمتي.

- أنا أسفه مرة ثانية.

- المهم آخر مرة تيجى بالمنظر دا وأوعي تفتكري إنك بالطريقة دى هتحققي اللى أنت عايزاه، لا أنت هتخسري كثير لو فضلتي تفكري بالطريقة دى، اللى هيختارك هيختارك لشخصك مش شكلك.

أحمر وجهها واستأذنت بالخروج.

ضحك فارس عندما تخيل هنية فى مكتبه الآن وقد رأت هذه الفتاة تجلس أمامه وتحدثه هكذا، كانت لن تتركها تخرج على قدميها من المكتب.. ربما تمزقها بأسنانها وأظافرها هنية امرأة صعيدية.. فى

بيتها عطوفة محبة، تعرف كيف تسعد زوجها، هنية لفارس الزوجة والحبيبة وأم أولاده وكل شئ.

وبعد أن درس الشركة وألم بكل أمورها بأسرع مما يتوقع كل من بالشركة.. ذهب فارس إلى مدينة الأمل استقبله المهندس خيرت وعندما رآه فارس لم يرتاح له، لا يدرك لماذا ولكن هذا أول أحساس وصل إليه، طلب منه فارس أن يري التقاوي التى يستخدمها فى الأرض، راوغ المهندس وقال:

- لا داعي لأن تتعب نفسك هى نفس التقاوي اللي طول عمرنا بنستعملها.

نظر إليه فارس نظرة ثاقبة بعينين ناريتين، أرتعد خيرت وشعر أن عيني فارس قد اخترقتا جسده، فذهب مسرعاً من أمامه ليحضر التقاوي.

أمسك فارس التقاوي شمها ثم تفحصها بعينيه وفركها بين يديه، لمح الاضطراب على ملامح خيرت قال له بحزم:

- كل التقاوي تتجمع، مفيش حباية تنزل الأرض غير لما أحلل عينة منها.

سأله:

- خير فى حاجة يا باشاً؟

رد فارس:

- أنا مش باشاً أنا فلاح ابن فلاح وخريج زراعة.

كان شك فارس فى محله فقد أثبتت التحاليل أن التقاوي فاسدة، بعد التحقيق فى الأمر تيقن فارس أن خيرت ليس له أي ذنب فقد استلمها من نفس المكان النابع للوزارة والذى يأخذ منه كل مرة.. وكان اضطرابه لسبب آخر فقد خشي أن يستقر فارس بالمدينة ويضيع منه منصبه كل ما فى الأمر خوفاً على وظيفته ومستقبله لكن هو مخلص ف عمله، فقد صارت مدينة الأمل كل حياته عمله ومسكنه، أصبح لا يتركها إلا أجازات قصيرة يزور أهله ثم يرجع سريعاً.

اتصل فارس بعمته وأخبرها بما وصل إليه حضرت صباحاً على أول طائرة وعقدت اجتماع بكل العاملين بالمدينة ثم اتصلت بأحد الأعضاء بمجلس الشعب على صلة جيدة به وبمكتب وزير الزراعة واستمعت إلى وعود بالنظر فى الأمر ودارسة المشكلة.. أقامت بالقاهرة أسبوع ولم تصل إلى شئ فاضطرت للعودة للعزبة وتركت فارس يتابع الأمر وبعد

أكثر من شهر وصل فارس إلى الحقيقة المخزية أن البذور قامت الوزارة باستيرادها من إسرائيل..

قال فارس باستغراب:

- أحنا من ألاف السنين بلد زراعية، إسرائيل ساعتها مكنتش لها وجود عمرها ما يكملش مائة سنة، هى تصدر لنا بذور مش قادر أعقلها.

رد عليه المسئول بمجلس الشعب:

- طيب لو عرفت أن خبراء زراعيين إسرائيليين فى مصر عشان يعلمونا أـزاي نزرع.

رد فارس:

- دي أسخف نكته سمعتها فى حياتي.

رد المسئول:

- دى مش نكته، دى خطة محكمة لطمس خبراتنا، بعد أن نجحوا فى طمس هويتنا، لو كانت فريدة راحت العزبة تطهرها وتحارب الظلم والفساد، فهنا جيوش من الفساد والظلم مستنية كثير شبه فريدة، محتاجة فعلاً فوارس.

أمر فارس بإعدام كل التقاوي وأصدر أوامر أن يتخذوا كل الإجراءات لعمل اكتفاء ذاتي وعدم أخذ أي تقاوي من وزارة الزراعة ووعد العاملين بالمدينة أن يسعى هو باتصالاته بتوفير ما يحتاجون من تقاوي من خلال علاقاته بالصعيد، سعد خيرت بقرار فارس وأطمأن قلبه له بل صار من أقرب الأصدقاء إليه بالمدينة وتطوع بأن يقوم بكل ما يطلب منه من سفريات أو مقابلات ليحضر للمدينة أفضل أنواع التقاوي.

لم يطل الأمر كثيراً ولم تتعطل المدينة فعلاقات فارس لا حدود لها ليس فى جنوب الصعيد فقط بل كل محافظاته ولم يهدأ له بال ولم يغمض له جفن حتى أحضر كل ما تحتاجه المدينة من تقاوي مصرية أصيلة وسماد طبيعي لا كيماويات فيه لتكون مدينة الأمل أول مدينة بها خضروات وفواكه ليس بها تدخل يضر بالصحة لم يكتفي فارس بذلك بل فحص علف المواشي والطيور ووجد به أيضاً بعض الحبوب التى تساعد على النمو السريع لكن تضر بالطيور والعجول فقام بإعدامها واستبدالها بعلف طبيعي مائة فى المائة ولذلك يتميز أنتاج المدينة الزراعي والحيواني عن غيره ويزيد من قوة التصدير لها لكن على الجانب الأخر يزيد من الأعداء والحاقدين الحاسدين دوماً لفريدة وما تقوم به فيذهب النوم من عيونهم ويشرعون فى حياكة المكائد لها وكأن حمدان بما يفعله غير كافي.

-١٣-

ساد العزبة سكون استمر عدة شهور فحمدان لا يزال عاجزاً عن التفكير منذ الضربة التى قضما ظهره، وفريدة لازمت الفراش حتى تضع مولدها.

وفى فجر يوم خرج درويش مهللاً مغنياً:

- مبروك عليكم يا فوارس، مبروك عليك يا أسد، جالك شبل يسند ضهرك ويرجع اسم الحاج محمد من تاني.

وضعت فريدة مولدها "محمد" قريب الشبه من الحاج محمد، أتت الأسرة جميعاً للاحتفال بالمولود وبدخول محمد كلية الحقوق، أمضوا أسبوعاً ثم عادوا إلى القاهرة حيث الأمور خليط من الأمل والترقب فقد حصل سالم أيضاً على الليسانس وصار معيداً فى نفس الكلية التى يدرس بها محمد وقد تعرف عليه سالم حينما رآه فى حين لم يعرفه هو وذلك لأن سالم كان يُمضي معظم وقته بالقاهرة متعللاً بالدراسة ليهرب من مواجهة أبيه ولنفوره من تصرفاته وكان عمل سالم فى مكتب المحامي والذى ذهب إليه بوساطة من صديق الأستاذ عمر صاحب المكتب كان يقتصر على تجهيز ملفات القضايا أما الآن بعد حصوله على الليسانس وبتقدير امتياز إلى جانب تعينه معيداً بالجامعة بدأ يدرس القضايا كمحامي تحت

التمرين ويكتب تعليقه عليها ثم تطور الأمر إلى مقابلة أصحاب القضايا والاستماع إليهم وكتابة تقرير عن بعض القضايا وبعض الحيثيات بها وسرعان ما تقدم وبدأ يترافع فى بعض القضايا الصغيرة وكان لسالم حدس خاص ليس عن خبرته فى المحاماة ولكن عن خبرة أكتسبها من حياته الخاصة ولم يخطئ حدسه مرة واحدة حيث أنه يشعر بمن يأتي إلى المكتب حين يتحدث معه إن كان مظلوماً أو يدعى كذباً وزوراً ويصير فى قمة حماسه لو تأكد من براءة موكله رغم عدم كفاية الأدلة ويواصل الليل بالنهار يفكر ويرتب حتى يصل إلى دليل للبراءة أو خط ضوء يسير عليه فيصير فى قمة سعادته حينها ويتمني فى نفسه أن يأتي اليوم الذى يستطيع فيه أن يثبت براءته من أفعال أبيه ويسترد حياته التى سلبت منه قهراً.

لم يمر وقت طويل على عمل سالم بالمكتب حتى أتي محمد إلى المكتب ليتدرب وذلك لشدة حماسه للمحاماة وعشقه لها وسعد سالم بتواجد محمد معه بالمكتب وعلم محمد إنه الأستاذ سالم الذى يدرس له بالكلية فسعد بذلك كما سعد سالم به وكان كثير النقاش معه ولم يتوان أبداً عن إعطائه خبرته ورؤيته القانونية فساهم ذلك فى تفوق محمد الدراسي مما زاد التقارب بينهما، أما حال محمد فى كليته كانت له السنة الأولي بمثابة التعرف على المناخ العام للجامعة وقد رأى

أطياف من الشباب منهم الذى ينهمك فى دراسته ويعزل نفسه عن كل ما حوله وفى المقابل من لا يعبأ بالدراسة ولأهم له إلا الرحلات وحفلات الصخب ودخول السينما ويعتمد على أخذ الدروس عند المعيدين وينجح بالكاد وبين هذا وذاك شباب له سمت خاص.. يفكر.. يقرأ.. يندمج فى أسر بل يكون هو أسر شبابية جامعية ذات أهداف ثقافية تهتم بهموم المجتمع ومشاكله ولها بعد سياسي، يُقيم الندوات ويشارك فى انتخابات اتحاد الطلاب.. له رأى يغضب ويثور ولا مانع لديه أن يشارك فى بعض الوقفات داخل الحرم الجامعي أو خارجه، لم يعجب محمد إلا هؤلاء الشباب فتعرف عليهم ثم انضم إلى أسرة من الأسرة وشارك فى انتخابات اتحاد الطلاب وفاز ليس باسم الفوارس ولكن بحضوره وقوة شخصيته مع أريحية وتواضع تجعل كل من يتعامل معه يحبه ويثق فيه وكان سالم أيضا يدعم هؤلاء الشباب ويساعدهم.

أما زوجة عطية روحية فقد سعدت بتفوق أولادها فى الدراسة وحب راوية لها، واطمئن قلبها أكثر حين رأتها حبيبة بنت فارس عند راوية وكانت تأخذ درساً فى اللغة الإنجليزية ولم تعرفها حبيبة فشعرت إن سرها لن يكشفه أحد وستكون هى وأولادها فى مأمن من أي شر، وكذلك أكرم اللّٰه عطية بتوبة نصوح سطعت نور فى وجهه، ورزقه اللّٰه

بحب الدكتور ماجد له الذى حاول جاهداُ أن يفهم من عطية ماذا يريد قوله فأدرك أنه يريد السفر إلى الصعيد ليبحث عن زوجته وأولاده فوعده أن يحقق له ذلك.. فسبحان من يُغير ولا يتغير.

انتهى العام الدراسي ونجح محمد بتقدير امتياز واجتاز سيف كل اختبارات كلية الشرطة فالتحق بها وكانت حياته تختلف تماماً عن أخيه محمد تماماً.. التزام عسكري تام.. لا مناقشات.. لا ندوات.. لا يسمح له إلا بتمام يا أفندم.. حاضر يا أفندم، وقد تعود عليهما لسانه.. وفى خلال هذا العام توطدت العلاقة بين محمد وأستاذه سالم وكان يسمح له بأن يطرح رأيه فى القضايا التى يترافع فيها.. ومن بين هذه القضايا كانت هناك قضية تشغل الرأي العام كثيراً، شاب أتهم فى قتل عمه والأدلة كلها ضده والشاب يبكى ويقسم أنه برئ، أعطى سالم ملف القضية لمحمد ليقرأها ثم يكتب ملاحظاته، وبعد أن قرأ محمد الملف جلس مع سالم وأخبره أنه يميل إلى براءة الشاب وأن الشبهات كلها تحوم حول أبيه، سعد سالم لإن هذا أيضاَ كان رأيه وعملاً سوياً واستطاع سالم فى المحكمة أن يثبت براءة الشاب وكان الأب فعلاً هو الفاعل بسبب الميراث كانت القضية سبب فى أن ذاع صيت سالم حتى أن من يأتي للمكتب يطلبه بالاسم ومن يومها وسالم يجعل محمد يشاركه فى كل قضاياه فازدادت العلاقة وداً واحتراماً وكلما خلا سالم

بنفسه تساءل "هل لو علم محمد أنني ابن حمدان الضبع سيظل يحترمني ويقدرني كما هو الآن" وحينها تصيبه غصة فى حلقه ويشعر وكأن خنجراً فى قلبه أن تركه يدميه لكن لا يقوى أن ينزعه إلا أن يقض اللّٰه أمراً فى شأنه أمراً كان مفعولاً.

وساعدت الظروف سالم أكثر فلم يلتق بفارس قط ولم يخطر ببال فارس أن سالم هو من يدرس لابنه محمد وأنه يعمل عند الأستاذ عمر محامى الشركة فى مكتبه وذلك لأن فارس لا يملك وقتاً ليذهب إلى المكتب دوماً عمر هو من يذهب إليه فى الشركة وفارس إما فى الشركة أو فى مدينة الأمل وسط الشباب فقد أحبوه وتعلقوا به وكأنهم يعرفوه من سنين وصار هو الملاذ لهم ليس فى مشاكل العمل فقط بل حتى يأخذون رأيه فى أمورهم الشخصية حتى أن الموظفة شيرين صارت محتشمة فى ملبسها وغيرت سلوكياتها ورفضت أن يناديها أحد بشيري ونتيجة لذلك قام أحد زملائها بخطبتها وسعدت كثيراً وكان أول ما فعلته أن شكرت فارس لأنه هو السبب فى أن تجد نفسها وتفهم الحياة وتفتح لها الحياة أبواب السعادة والأمل.

قالت له فى حفل الخطوبة:

- أنا مهما قلت مش هاقدر أرد لك الجميل يا أستاذ فارس بجد أنت فهمتني حاجات كتير فى الحياة.

ضحك فارس وقال:

- بلاش تبالغي وخلى بالك من خطيبك ولو احتجتي حاجة بعيد عن الشغل أنا أخوكِ فارس.

- دا شرف كبير إن يبقي لي أخ زيك.

ورغم انشغال فارس بالقاهرة إلا أنه لا يمر شهر بدون أن ينزل العزبة ليطمئن على عمته وقد أعجبه كثيراً أن الأمور فى العزبة تسير فى صالح عمته خصوصاً بعد أن تزوج حمدان من سنية التى لحست عقله وألهته عن كل خططه من ثم زيارة برهان بيه له بدون سابق ميعاد وهو رجل أعمال فى القاهرة يعمل حمدان لصالحه وقد طلب من حمدان فى الزيارة أن يقوم بتهدئة الأمور مع فريدة حتى لو أضطره ذلك لتقديم تنازلات وأفعل ما يطلبونه بدون جدال ثم حذره قائلاً:

- فريدة قلبها حديد وعنيدة وكمان معها سلمان، يعنى هى هتفضل ورآك لغاية ما تجيب قرارك.

قال حمدان:

- يعنى ممكن تقتلني، دى مش ممكن تكون حرمة أبداً.

رد برهان:

- لو كانت عايزه تقتلك كانت عملتها أول ما وصلت العزبة هى عايزه تخلص عليك بأنها تكشفك للحكومة وبكده نروح كنا فى داهية.

قال حمدان:

- يبقى مفيش غير أنكم تقتلوها.

- زى ما أنت قتلت أخوها وجلبت لنا المشاكل، دا مش شغلنا، أحنا مش بنقتل، دبر أمورك الراجل الكبير مش راضي ومش فاضي لمشاكلك، لو أكشفنا تضيع رقاب.

قال حمدان:

- حاضر يا بيه طمن الرجل الكبير.

جلس حمدان يفكر فيما قاله برهان بيه فأشارت عليه الداهية زوجته أن يذهب إلى دار الفوارس مرتدياً ثوب الصلاح والمسكنة ويقسم أنه

لم يقتل الحاج محمد ويعرض عليهم جلسة عرب ويكون بينهم حكم يرتضونه ويُذعن الكل لحكمه لتحقن الدماء بالعزبة.

اقتنع حمدان برأيها وأرسل إلى سلمان أنه يريد زيارته استغرب سلمان وأبلغ فريدة ورغم أنهما الاثنان لا يطيقانه إلا أن تقاليدهم تجعلهما لا يستطيعان الرفض فأمهله فى تحديد الميعاد حتى يتدبر أمره.

اقترح سلمان على فريدة أن يصعد الجبل ويستشير الحاج شعلان ويسأله عما لديه من أخبار، أصرت فريدة أن تصعد معه، فقال سلمان:

- فريدة أنتِ دلوقتي أم وأنا بخاف عليكِ، أنا هاروح بدل منك.

ردت فريدة:

- بالنسبة لمحمد الست نفيسة بترعاه كويس وأما إنك بتخاف عليّ أزاي تخاف عليّ وأنا مع سلمان الأسد، يا حبيبي أيدي بأيدك لغاية ما نحقق اللى بنتمناه.

رضخ سلمان فهو لا يملك أن يغضبها وهى تملك قلبه وهو الأدرى بها وأنها لا تعود عما تريد حتى تصل إليه.

كانت الأخبار كلها مدعاة للحزن فقد علموا أن حمدان هو من دبر لقتل زوجته أم سالم وأنه يستعد لعملية جديدة بعد زيارة برهان بيه له وأعتقد الحاج شعلان أن حمدان يطلب الصلح بناء على أوامر برهان بيه حتى لا تتأخر العملية الكبيرة عن موعدها كما حددوا لها من فترة.

استاءت فريدة لما سمعته وحزنت أكثر عندما علمت أن المأمور يعرف بتجارة حمدان فى المخدرات وأنه يقبض الكثير مقابل سكوته، وسألت الحاج شعلان باستغراب كيف يعرف كل هذه الأخبار وهو لا ينزل من الجبل:

أجابها:

- الجبل زى ما فيه أحنا فيه مجرمين وتجار مخدرات وهاربين من الثأر كل واحد له حياته وله طريقته، المهم عهد الأمان للجميع، يعنى ما نخون بعض مهما اختلفنا كل واحد له حياته.

ردت:

- لكن أنت عارف الظلم والفساد وساكت رغم إنك تقدر.

وقبل أن تكمل رد عليها:

- الحاج محمد اللّه يرحمه كان عارف، واسألي سلمان هتلاقيه عارف كل حاجة وبرضه ساكت.

سألت فريدة سلمان:

- معقولة أنت عارف أن حمدان تاجر مخدرات.

رد:

- الكل عارف المهم الدليل، وطالما الحكومة بتسانده، يبقى أحنا هنقدر نعمل أيه؟!

قال الحاج شعلان:

- الحل فى أيدك يا فريدة الفوارس.

ردت:

- عايزني استقبل فى بيتي الراجل اللي كل البلد عارفه أنه قتل أخويا حرام عليك كدا كتير عليّ يا حاج.

قال:

- اسمعينى يا بنت الأصول، لو كان على حمدان كلنا نبغي حرقه.. لكن الموضوع أكبر من كده، عزبة الفوارس بتضيع وشبابنا كل يوم بتدمرهم المخدرات، أنا قادر أقتل حمدان، لكن لو قتلناه الكبار هيضيعوا من أيدينا ويلاقوا حد تاني أحنا مش هنعرفه وساعتها نبقي خسرنا المعركة، ودى معركة تاريخ وتراث ووطن بحاله.

- تقصد أيه يا حاج.

- أقصد تجارة الآثار، من سنين اكتشفوا مقبرة فى طريف الجبل.

- فعلا الحاج قال لي فى جواب، لكن الموضوع سكت مرة واحدة.

- سكت لأن الكبار أخذوا كل شئ، سرقوا حقنا فى بلدنا، لعبة قذرة مستمرة من سنين.

نظرت إليه مستغربة وتوجهت لسلمان بالسؤال:

- أنت كنت عارف برضه.

رد:

- أنا مقدرش أعمل حاجة لوحدي والحاج اللّٰه يرحمه كان همه أنه يحمى الغلابة أهل العزة من ظلم حمدان.

عاتبت فريدة الحاج شعلان:

- عارف كل دا وقاعد فى الجبل وتارك بلدك لظلم والنهب وأنت محارب قديم.

- يمكن كنت غلطان، كنت بقول مفيش فايدة لأن الحاج كان كل همه يرفع أيد حمدان عن أهل العزبة، لكن الوضع أتغير أنا شايف فيك أمل كبير، أيدك فى أيدينا نطهر البلد ويمكن يجئ اليوم اللى انزل تاني أعيش بالعزبة.

التزم سلمان الصمت، قال له الحاج:

- أنا عارف أنه صعب عليكم لكن بلدنا أهم من أهلنا محدش قال ننسي ثأرنا، كل الحكاية أننا نأخذ ثأر بلد بحاله، مش ثأر الحاج محمد لوحده.

أمسك سلمان بيد فريدة قبلها وقال:

- أنا واثق إنك تقدري تكبري على آلامك وتتحملي وتخوض المعركة لأجل بلدنا وناسنا.

قال:

- عندك حق من بكرة ها سافر القاهرة وأقابل المسئولين الشرفاء وأشرح لهم الموضوع وأطلب منهم التعاون معنا وربنا يعينا لو الحرب استمرت سنين مش هامل ولا ها ضعف.

عادت فريدة وزوجها للدار وفى حجرتها جلس سلمان يبدو عليه الحزن، أدركت سبب ذلك هو يخشي عليها من السفر للقاهرة بمفردها ولا يستطيع أن يذهب معها ويترك العزبة لحمدان يفعل ما يحلو له أثناء غيابهما.

قالت له:

- أنا عارفه إنك قلقان من سفري لكن أوعي تنسي أني فريدة الفوارس وزوجة سلمان الأسد وفوق كل دا ربنا معايا وهو خير الحافظين.

قبل يدها قائلاً:

- عندك حق لكن أعمل أيه مش بقدر أتحمل غيابك عن عيني.

رفعت يدها إلى شفتيها بحنان وقبلتها ثم قالت وهى لا تزال تمسك بها:

- ولا أنا لكن ما باليد حيلة مقدر ومكتوب، وأنت فى عيني وقلبي وأنا فى أي مكان.

فاجأت فريدة أسرتها بالزيارة وكانت فرحتهم بلا حدود وعندما رأوها ومعها محمد ابنها الصغير أخذ أولاد فارس يتخطفونه، لكن فريدة وضعته فى حجر الحاجة حليمة ومالت على يدها قبلتها وقالت:

- شفتي يا حاجة شبه الحاج محمد اللّٰه يرحمه كأنه هو.

ردت:

- عندك حق، ربنا يبارك فيه.

حزنت فريدة من أجل الحاجة فقد بدأ عليها الكبر من الحزن وغلبها المرض فأصبحت لا تقوي على الحركة وأحضر لها فارس كرسي متحرك حتى لا تلتزم حجرتها ليل نهار، تمنت فريدة أن يطيل اللّٰه من عمر الحاجة حتى يقتصوا من قاتل زوجها حتى تأخذ العزاء فيه كما تتمني.

اختلت فريدة بفارس وروت كل ما وصلت إليه.. وكان الأمر مفاجأة بالنسبة له فوالده كان يخفي عليه الكثير من هذه الأمور خوفاً عليه

وكان أيضاً هو لا يخوض فيها مقتنعاً أن هذا شأن الحكومة وأنه يكفيه إعانة الفقراء وحمايتهم من حمدان.

رد فارس:

- حملك ثقيل يا عمتي وأنا هنا قاعد وأنتِ لوحدك.

قالت:

- أنت هنا بتحمي الأسرة كلها وبترعي مصالحنا وخلى بالك الفساد مش فى العزبة بس الفاسدين فى كل مكان وأنت تحارب هنا وأنا هناك ومش لوحدي معايا سلمان وكل أصحابنا وربنا يعينا كلنا ويجعله خالص لوجهه الكريم.

طلبت فريدة منه ألا يذكر شيئا مما أخبرته لأحد من الأسرة، ولم تضيع وقتها ففي نفس يوم وصولها ذهبت إلى محاميها الذى كان يمني نفسه بالزواج منها وعندما علم بزواجها حزن فى نفسه لكن تمني لها السعادة مع من أختاره قلبها وأخذ على عاتقه أن يظل بجوارها يهتم بشئونها ويساعدها طالماً احتاجت إليه فهي تعتمد عليه وتأخذ رأيه فى كل أمورها الفرق أنها رأته أخاً وهو رآها حبيبة.

روت له كل ما حدث من ساعة وصولها للعزبة حتى لحظة سفرها..

قال متعجبا:

- عزبتكم حكاية كبيرة قوى.

ردت:

- لا يا عمر قولها صح، بلدنا كلها حكاية كبيرة، المهم هتقدر تساعدني؟

- ممكن أعرفك على رئيس مباحث، صديقي نزيه ووطني، أكيد هيقدر يعمل حاجة.

لم يتواني واتصل به "يحي المشد" وطلب منه الحضور لأمر مهم..

جلس إليهما وبعد سماعه الموضوع كان رأيه أنها ظنون بلا أدلة مادية يقدمها لرؤسائه وإن لو كانت العزبة فى دائرة عمله لجمع الأدلة بنفسه، أما الآن فالأمر صعب، ثم نصحها أن تتذرع بالصبر ولا تتهور حتى لا تضع نفسها فى موقف لا تُحسد عليه، وحذرها من حمدان ومن معه فكما يبدو هم فى قمة الحرص والذكاء ويري أنهم شبكة عنكبوتية كبيرة خيوطها فى العزبة وأصلها هنا فى القاهرة وربما أبعد من ذلك أيضاً، ووعدها أن يجري اتصالاته وينظر ماذا يستطيع أن يفعل.

خرجت من مكتب عمر مكتئبة وطلب منها أن يوصلها بنفسه، فرفضت متذرعة بأنها اشتاقت لشوارع القاهرة وستطوف بسيارتها بها فقد

أوحشتها كثيراً، وحقيقة الأمر أنها قررت الذهاب إلى إدارة مكافحة المخدرات وهناك أخبرتهم بما عندها فكان رد من جلست إليه بعد أن استمع لما قالته:

- كلها شكوك بلا أدلة ولابد من إذن من المختصين مبني على تحريات مكثفة.

مكثت فريدة بالقاهرة ثلاثة أيام استمتعت بروح الأسرة وأحاديث أولاد فارس ورأت أنهم قد كبروا سريعاً وأنهم يسبقون سنهم وكلهم لهم طموحات وخطط لا تختلف عما تفكر هى فيه لكن للأسف لم تصل إلى شئ ولم يتصل بها أحد فقررت العودة للعزبة وعادت الفيلا مرة أخرى لحالة السكون ففارس بالشركة أو بمدينة الأمل وأولاده كل منهم يهتم بدراسته وله حياته واهتماماته وهنية تنشغل وقتها بأعمال المنزل والفيلا كبيرة ولا تكتفي هى بعمل الخادمات بل تصنع الطعام بيدها والحاجة حليمة إما فى سريرها أو تصحبها على التراس على كرسيها المتحرك وتسامرها حتى لا تشعر بالملل هكذا تمر الأيام على كل من بالقاهرة أما فى العزبة فدوماً الأيام تحمل لهم كل جديد فبمجرد وصول فريدة للعزبة أرسل لها حمدان مرة أخرى طالباً الزيارة فكان ردها:- لما أعرف مين قتل الحاج وآخذ ثأري وعزائي ساعتها استقبلك فى بيت الفوارس.

اغتاظ حمدان من ردها وأدرك أنها تخطط لشئ ما.

لم تضيع فريدة الوقت وطلبت من سلمان أن يصحبها للجبل، قابلت الحاج شعلان وروت له ما حدث بالقاهرة ثم قرروا ألا ينتظروا تعاون الجهات المسئولة معهم وأن يتحركوا بأنفسهم ويكفي ما ضاع منهم فاتفقوا أن يراقب حمزاوي ورجاله الجبل وما حوله ويراقب سليم ودرويش حمدان ربما يصلوا إلى شئ.

مرت سنة كاملة منذ الاتفاق وما يقرب من ثلاث سنوات منذ وفاة الحاج محمد وانتقال فارس وأسرته إلى القاهرة.. قرب محمد على الانتهاء من الحقوق وسيف متفوق فى دراسته بالشرطة وصارت حبيبة على مشارف دخولها الطب كما تحلم وقد حصدت ٩٨٪ فى الثانوية العامة وتستعد الآن إلى دخول كليتها.

كان حمزاوي ورجاله عيونهم كالصقور بالجبل يراقبون كل جزء فيه وكذلك سليم ودرويش يتناوبان على مراقبة حمدان ولم يصل أي منهم لأي شئ، فالكل لا يدرك أن الأوامر العليا لبرهان وحمدان أن يكمنوا نهائياً حتى تملّ فريدة ومن معها ويصيبهم اليأس من تتبعهم فيعاودن نشاطهم مرة أخرى بالعزبة وقد اضطروا إن يحولوه إلى طريق أخر.

وفى خلال هذه الفترة كانت فريدة قد انتهت من بناء المدرسة على أحدث تراث وضم أبناء العزبة لهم وآخرين من القرى المجاورة، وأتت فصول محو الأمية ثمرتها فقد أتقن الكثير من السيدات والرجال القراءة والكتابة أما الفتيات اللاتي لم يدخلن المدارس فقد التحقن بالمشغل الذى أعدته فريدة وألحقته بالمسجد الذى بنته، أما مركز الكمبيوتر الذى أعدته وزودته بأحدث الأجهزة فقد التحق به كل الشباب لإثراء خبراتهم لتتفتح أمامهم مجالات العمل.

كانت فريدة لديها قناعة أن الفقر والجهل هم أساس البلاء أي أمة وأن القضاء عليهما هو طريق لمحاربة الفساد أيضا لذلك أغدقت من أموالها على العزبة فلم تترك داراً بلا ثلاجة أو بوتاجاز ورممت كل البيوت التى بحاجة إلى الترميم ومهدت الطرق حتى تغيرا العزبة وكأنها لبست ثوب الحياة بعد موات أنهك أهلها.

مرت ثلاثة شهور من السنة الثانية بعد زيارة فريدة للقاهرة ومقابلة يحيى المشد حتى ظن الجميع لأنهم يسعون خلف سراب حتى كانت ليلة من الليالي الشاتية بعد العشاء بقليل رأى درويش رجلا غريب الهيئة يخرج من الباب الخلفي بدار حمدان ثم ذهب للأرض ومشي وسط الذرة ودرويش وراءه حتى وصل الأول الطريق المؤدي للجبل ثم ظهر موتوسيكل يقوده رجل ملثم ركب وراءه الرجل الغريب وانطلق به،

اغتاظ درويش أنه لم يستطيع ملاحقته وساوره الشك أن هذا الرجل ليس إلا حمدان متخفياً.

كان حمزاوي ورجاله يراقبون الجبل كعادتهم فرأوا إشارات ثم أشباحاً تخرج من بين الصخور تتلفت حولها وفى يدها رشاشات آلية، وبعد فترة آتي رجلان بدويان ومعهما جمل كبير، حمل رجال آخرين أشولة أرز على الجمل ثم ظهر رجل غريب الهيئة استلم شنطة من البدويين ثم اختفي، سار البدويان بالجبل واختفت الأشباح ثم عاد الجبل كما كان.

أخبر حمزاوي الحاج شعلان بما رآه، شك الحاج أن الرجل المتخفي هو حمدان، لكن لا دليل، حزن أن ضاعت منهم الفرصة وخشي ألا يأتي اليوم الذى تتخلص فيه العزبة من حمدان ومن معه وأن يأتيه أجله قبل أن يحقق أمله الذى لازمه طول إقامته بالجبل.

أما حمدان ومن معه فقد كانوا فى قمة السعادة فقد استعادوا نشاطهم بدون أن يدركهم أحد فاطمئن حمدان أن فريدة لن تستطيع فعل شئ فكان ذلك مدعاة للسرور فانغمس فى لهوه مع سنية حتى يأتيه الأوامر بعملية جديدة، لكن كانت العملية كبيرة مكث بعدها حمدان شهور طويلة طالما اتصل ببرهان بيه أخبره أن ينتظر وكان برهان بيه قد فتح له مجالاً وأناس أخريين بعيد عن العزبة حتى إذا وقع

حمدان لم يتأثر هو ولا من يعمل معهم لكن هو لا يخبر حمدان بذلك حتى يتقي شره.. فحمدان لو شعر أن برهان قد يستغني عنه سوف يهد المعبد عليهم جميعاً كما أنهم لا يزالون فى حاجة إليه لذا يحافظون عليه.

-١١-

رغم أن الأحداث تسير ببطء فى العزبة إلا أنها فى القاهرة إيقاع الحياة أسرع بطبيعة الحال فقد التحقت حبيبة بكلية الطب جامعة القاهرة وكان محمد بالسنة الثالثة بالحقوق وقد فاز برئاسة اتحاد الطلبة مع رئاسة أسرة المستقبل والتى انضمت إليها حبيبة بمجرد دخولها الكلية وهى رغم دراستها إلا أنها تحب الأدب عموماً وكثيرة القراءة والإطلاع فشاركت فى عمل مجلة شهرية تهتم بكل شئ فبعض المقالات طبية والأخرى أدبية إلى جانب بعض الأشعار ثم صفحتين عن المجتمع تناقش كل المشاكل.. كان لحبيبة رؤية فى المجتمع توضحها فى كتاباتها فهي تري أن المجتمع الذى يعاني الفقر والجهل والمرض مجتمع مسلوب الإرادة وأن هذه سياسة متعمدة حتى لا يملك الوقت أو القدرة على التفكير أو الاعتراض، وترى أن استمرار الضغط على الناس بهذه المشاكل لا يولد إلا انفجار لا يعلم مداه إلا اللّٰه.. كان فارس يناقش أولاده وبسعد بآرائهم ويشجعهم أن يقولوا الحق ولا يخشون إلا اللّٰه ثم جاء يوماً كان عاراً على العرب والمسلمين أجمع.. يوم الهجوم على غزة انتفض الشباب فى جميع الكليات لنصرة غزة وامتلأت الصحيفة بالجامعة بصورة أشلاء الأطفال والبيوت المهدمة وصورة مكبرة لمحمد درة وأبيه وقطرات دم وتحت الصورة عبارة

وقدساه.. يا عرب.. يا مسلمين.. هل من مجيب.

أمسك أمن الجامعة بمحمد ورفاقه وسلمهم إلى رئيس الجامعة وكان بالمكتب مسئول أمنى وتم تحويل محمد ورفاقه ومن بينهم حبيبة إلى النيابة بتهمة التحريض والتجمهر وزعزعة الأمن.

علم فارس بما حدث فاتصل بالأستاذ عمر فذهب إلى الطلبة، قابل الأستاذ عمر رئيس النيابة بصفته محامي عن كل الطلبة ورفض الاتهامات الموجهة إليهم ورفض الإجراءات لأنها غير قانونية قائلا:

- أنتم عايزين تمنعوا الشباب حتى من الكلام، ناقص يتنفسوا بالأذن، يا أفندم دى قضية وطن ودين مش قضية بلد واحدة، بلا سبب دى مسألة إنسانية فين الضمير الإنساني ذنبه أيه محمد دره، المجتمع الدولي بيدافع عن الحيوانات فين المجتمع الدولي من غزة وأهلها، أنا باحتفظ بحق الطلبة بأن يقولوا رأيهم طالما لم يفسدوا ولم يخالفوا القوانين.

رد رئيس النيابة:

- كلهم هيخرجوا، دى مجرد شدة ودن عشان يخافوا ويركزوا فى دراستهم وبس.

خرج جميع الطلبة وعاد محمد وحبيبة إلى منزلهما، لم تكف هنية عن البكاء حتى دخلوا عليها احتضنتهم وقالت:

- كده يا محمد بدل ما تعقل حبيبة، تشجعها وتكون معاك.

ضحك محمد قائلا:

- حبيبة زينة البنات وعقلها يوزن بلد، لازم تفتخري بها وربنا الحافظ يا أم محمد.

نظرت هنية لفارس وقالت:

- ما تقول حاجة لابنك.

رد فارس:

- أنا فخور بك يا محمد أنت وأختك، أوعي تخافي من الظلم، يا أم محمد دولة الظلم ساعة ودولة الحق حتى قيام الساعة.

أدركت أم محمد أن الكلام بلا فائدة ففارس يشجع أولاده على تصرفاتهم فلا جدوى من الاعتراض فتركتهم وذهب للمطبخ وانصرف الأبناء كل إلى حجرته، جلس فارس بحديقة الفيلا يتأمل العزوب، تذكر أباه وجلسته على الأريكة أمام الدار، هاجت شجونه وتوالت الذكريات

الأليمة منذ سفره واستقراره بالقاهرة حتى الآن، ما كان يتصور يوماً أن المقام سيستقر به بين هذه الجدران الأسمنتية، وهذا الصخب بالمدينة بعد أن كان ينطلق بفرسه وسط أرضه وهو الطالب الجامعي يسهر ليلاً يرويها من عمره وأيامه إن حبه لأبيه جعله يلزمها ليل نهار ليريحه ويرعي الأرض بدلاً منه فملكت الأرض عليه وجدانه، ثم تمر السنون وتفعل الأيام فعلتها، أخذ الموت أباه ثم حرمته الأيام أرضه وأتت به إلى هنا، حقاً قد أثبت ذاته ونجح فى إدارة الشركة ويطفئ حنينه أحياناً بذهابه إلى أرض عمته مدنية الأمل لكن أبداً ليست كأرض فأرض تحمل رائحة عرقه إن الشمس فى القرية وسط الخضرة والسماء الصافية تبعث دفء فى روحه تفتقده هذه المباني الشاهقة الباردة.

تنهد وأخذ نفساً عميقاً، نظر إلى الشمس وهى تختبئ فى حضن السحاب ثم تعاود السطوع مع تباشير الصباح، شعر أن الأيام تعيد دورتها كما الشمس فقد فرض أبوه على عمته السفر بعيداً عن العزبة ليحميها، وها هى تفعل معه نفس الأمر لتحميه من شر منتظر وتعود هى لبلدها ودارها بعد سنين طويلة، لكن أيطول بعاده كعمته، أم يكون أسعد حظاً منها، دعا ربه ألا يطول فراق لبلده، وأن يعود إليها، كما تعاود الشمس إشراقها كل فجر وليد.

حمد فارس ربه وأثني عليه فرغم قسوة السنين عليه إلا أنها لم تخلو من رحمته سبحانه فما أخذته من عمره أضاء فى أولاده حيث صار محمد معيداً متفوقاً بالحقوق وسيف لم يبقي إلا شهور قليلة ويصير ضابطاً كما تمني وحبيبة تواصل تفوقها بكلية الطب، لقد تحققت كل أمال جدهم فيهم، بحثت هنية عن زوجها فلم تجده فأدركت أنه بالمكان الذى يذكره بالعزبة..

ذهبت إليه بخطٍ هادئة حتى لا يشعر بها، كان لا يزال يجلس غارقاً فى ذكرياته فلم يشعر بقدومها، تأملته بحب فرأت الشعر الأبيض قد بدأ يغزو رأسه رغم صغر سنه فكبر أولاده ليس إلا لسبب زواجه مبكراً لرغبة الحاج رحمه اللّٰه، تألمت لأجله فهو حب عمرها تري عمرها بين ثنايا ملامحه سعادتها عصارة عرقه دفئه هو أمانها وحنانه حضنها لذا لا ينغص عليها سعادتها إلا حنينه لأرض داره وثأره الذى يؤرق مضجعه فهذا عاداتهم لو مرت عشرات السنين لن يموت الثأر جلست بجواره جاذبة أطراف الحديث فى مواضيع شتى ثم اقترحت عليه أن يذهبوا فى أجازة الصيف إلى العزبة، رحب الفكرة ووعدها أن يترتب ذلك مع عمته.

أتت الأجازة الصيفية ومعها ما يدعو إلى البهجة والسرور فقد تخرج سيف وصار ضابط شرطة وأنجبت فريدة توأم بنتين فى غاية الجمال، سمت إحداهما حليمة إكراماً للحاجة التى رتبها ووردة لحبها للورد.

سافرت الأسرة للعزبة وسعدوا بأبناء فريدة فمحمد أبنها البكر رغم صغر سنه تبدو عليه علامات الرجولة والشجاعة وكيف لا وهو ابن فريدة الفوارس وسلمان الأسد والمولودتين خليط من ملامح فريدة وسلمان رغم الظروف التى تمر بها عائلة الفوارس إلا إن هذه الزيارة رسمت السعادة على وجوه جميع أفرادها، ولم تنس السعادة أن تدق باب حمدان وأعطته حظه منها فقد أنجبت له سنية بنتاً اسماها زهرة جميلة لأمها، أنسته ألم غياب ابنه سالم الذى يكتمه بين ضلوعه، وزادت سعادته بأنه تخيل أن فارس قد أخذته القاهرة بضجيجها وشغلته بأولاده ومستقبلهم الذى ارتسمت خطوطه الأولي بالقاهرة وإلى جانب اعتقاد أنه لن يخالف وصية والده وأن فريدة استسلمت لتنفيذ الوصية إكراماً لذكري الحاج فحاسن حياته بلا منغصات إلا من درويش الذي يظهر له فى كل مكان ويقول كلاماً لا يفهمه، ثم يصور لعقله ولا يُعير له اهتمام لأنه يراه كبقية أهل العزبة "عبيط مخبول" لكنه نسي فى زهوة سعادته أن الأيام دول، وأنه كما تدين تُدان، وأن طال الانتظار فلابد من بلوغ الأمل فقد اتصل عمر الرخاوي بفريدة

وطلب منها سرعة الحضور فسافرت الأسرة كلها وأصر سلمان هذه المرة أن يسافر معها فكيف يقعد بالعزبة وزوجته وأولاده بالقاهرة.

أسرعت فريدة إلى مكتب المحامي فى صحبة زوجها سلمان وهناك كان يحيي المشد فى انتظارها وزف إليها خبر بناقله إلى الصعيد فطوال هذه الفترة وهو يلح على رؤسائه لينقلوه إلى أن تمت الموافقة بعد أن أيقنوا أن يحيي يعتبر الموضوع قضية عمره ويقتنع بكل ما قالته فريدة لذا سيسخر كل خبرته وجهوده للبحث عن الأدلة المادية وكان هناك خبراً آخر اعتبره يحيي أنه سار فقد قدم سيف طلب أن يكون تعينه ببلده وتمت الموافقة وسيستلم قريباً عمله مع يحي المشد.

سعدت فريدة بنقل يحي لكن لم تسعد بتعيين سيف فحاولت إثناءه عن رأيه لكن سلمان أيده وشجعه على قراره.

اختلت فريدة بفارس وأخبرته باعتراضها أن يعمل سيف هنا خوفاً عليه أقنعته لكن دخل سيف عليهما وتكلم:

- أنا عارف طبعاً إن خوفكم عليّ هو سبب رفضكم، لكن أنا ضابط شرطة والخطر فى أي مكان، وأنا دخلت الشرطة من أجل بلدي وناسي، ولا استحق أن أكون من الفوار لو بقيت جبان أخشي الظالم والظلم فى أي مكان وأظن بلدي أولي بي.

قالت فريدة:

- لكن يا سيف، قاطعها هو:

- لكن أيه يا عمتي مش معقول تفضلي هناك وأحدك وإحنا نقعد بالقاهرة نستني ونسمع الأخبار.

احتضنه أبوه قائلا:

- توكل على اللّٰه وربنا يحميك.

رجعت الأسرة إلى القاهرة ما عدا سيف الذى اخفي سلمان عن العزبة خبر تعينه بالصعيد حفاظاً عليه، وبدأ يحي يلتقي بسلمان سراً ليستمع لكل ما يعرفه عن حمدان ليحكم خطته التى بدأ فى تنفيذها حين تلقي خطابين من مجهول، الأول يخبره أن حمدان هو من قتل الحاج ومن بعده عطية، والثاني يتهم المأمور بالتواطؤ مع حمدان وإخفاء جرائمه مقابل أموال طائلة يعطيها له.. ومما يدعو للاستغراب أن فريدة تلقت فى نفس التوقيت خطاب يخبرها أن حمدان هو من قتل الحاج محمد والإمضاء "فاعل خير".

ذهبت فريدة بالخطاب إلى مديرية الأمن لاتخاذ الإجراءات اللازمة لفتح ملف القضية مرة أخرى.

تم استدعاء المأمور والتحقيق فيما وجه إليه من تهم وسماع شهادة بعض الشهود ونتيجة لذلك تم نقله وبهذا استطاع يحي التخلص منه.

تم استدعي العميد يحي حمدان وبدأ التحقيق معه.

سأله:

- فريدة بتتهمك بقتل الحاج محمد وجالي خطاب يؤكد نفس الكلام.

رد حمدان:

- يا بيه أنا كنت فى داري ساعتها وأسأل أهل البلد.

سأله:

- وفين عطية؟

رد:

- كل البلد بتقول طفش.

صرخ فيه:

- لكن عندي معلومات بتقول إنك قتلته.

- أقتل رئيس خفري وأيه مصلحتي، لو عطية أتقتل يبقي الفوارس هم اللى قتلوه.

- وليه الفوارس؟

- يمكن شكوا أنه قتل الحاج.

- كانوا قتلوك أنت.

ارتبك حمدان ولم يستطع الرد، اكتفي العميد يحي بهذا القدر.

خرج حمدان من عنده وقرر أن يتصل ببرهان بيه ليزيح يحي المشد من أمامه.. لكن جرت الأمور على غير ما يريد وحدث ما كان يسعى إليه يحي، فقد حضر برهان بيه ليلاً إلى دار حمدان وأخبره أن الرجل الكبير ثائر وأمره أن يذهب إلى دار الفوارس ويدفع لهم الدية ويعقد صلحاً يشهد عليه المأمور حتى تنتهي مشاكله وإلا سيتم الاستغناء عنه نهائياً ومنحه مهلة ليتصرف وينفذ الأوامر.

كان هناك من يراقب دار حمدان ورأي برهان لحظة دخوله حتى خروجه وتحرك برهان بسيارته إلى طريق القاهرة.. وسيارة أخرى وراءه حتى دخل فيلا السبعاوي صاحب أكبر شركات للأغذية المحفوظة وهو رجل يُعرف بين الناس بالبر والصلاح ورعاية الأيتام والأرامل ولا تفارق

مسبحته يده، والأكثر من ذلك أنه يأخذ كل احتياجاته من مزارع الفوارس وهو والد رواية زوجة الأستاذ بكري مدير حسابات شركة الفوارس.

خرج برهان وكان الرجل بسيارته فى انتظاره وتبعه حتى دخل منزلة ثم اتصل بالعميد وأخبره بكل شئ، أرتاح يحي للأخبار وأمره ألا يدعه يغيب عن ناظرين.

بدأ العميد فى جمع المعلومات عن السبعاوي ليعرف ما علاقته ببرهان بيه هل من الممكن أن يكون السبعاوي هو "الرجل الكبير" ولِمَ لا؟! فى هذه الدنيا كل شئ جائز، عجيب أمر هؤلاء الناس، وكأنهم مربوطين بخيط واحد إذا تمزق بالعزبة التقي مرة أخرى بالقاهرة قال يحي يحدث نفسه "أنا ورائكم حتى النهاية" وليقضي اللّٰه أمراً كان مفعولاً.

التقي يحي بسلمان وعندما علم بذهاب برهان لسبعاوي استغرب فهو لم يسمع عنه من فريدة إلا أنه رجل بر وتقوي وله مكانة كبيرة عندها.. حضرت فريدة وعلمت من العميد أمر السبعاوي، أنتابها الحزن فهو والد أعز صديقاتها ولم تتصور يوماً أن الأيام ستصدمها فى هذا الشخص الذى تعتبره كوالدها تخيلت حالة راوية عندما تعرف هذه الأمور، غابت عنهم حتى أن سلمان ناداها بصوت عالي:

- فريدة أنتِ بخير.

استعادت توازنها وطمأنته أنها بخير.

طلب يحي منها أن تتصل بالسبعاوي وتتعامل معه كأنه لا نعلم شيئا حتى تسير الأمور كما يريدون بل الأهم أنها ستئودى لهم خدمة كبيرة عن طريق، وعدته أنها ستفعل ما اتفقوا عليه.

عادت فريدة بصحبة زوجها إلى بيتها وبعد الاطمئنان على أولادها دخلت حجرتها وأجرت اتصالاً هاتفياً.

- ألو..

- أيوه فريدة أزيك يا بنتي أيه أخبارك، وحشتينا، العزبة أخذتك منا ولا بنشوفك ولا حتى بنسمع صوتك فين أيام النادي وركوب الخيل.

ضحكت فريدة وقالت:

- وحضرتك وحشتني جداً صحيح العزبة شغلتني لكن مش تقلق عليّ أنا برضه بركب خيل هنا، كنت عايزه خدمة من حضرتك.

- عيني لك.

- شاب مكافح ظروفه صعبة بيدرس ومحتاج شغل، ياريت حضرتك تعينه عندك فى الأمن فترة مسائية لأنه طالب.

- اعتباريه أتعين يا ست الكل، المهم خلينا نشوفك.

- أكيد بإذن اللّه أول ما انزل القاهرة ها كلم حضرتك ونتقابل فى النادي.

فى خلال أيام تم تعيين الشاب بالشركة والذى قام بالمهمة المكلف بها على أكمل وجه فقد قام بوضع كاميرات وتسجيل بحجرة مكتب السبعاوي وبهذا يكون العميد قد أحكم قبضته على أول خيط وصل ليديه بالقاهرة وأمر رجاله بمواصلة المراقبة لبرهان وأيضاً عين من يقوم بمراقبة السبعاوي بعد تحركه من المكتب.

كان يحي يقضي معظم وقته فى مكتبه حتى أنه ينام فيه وفى ليلة بعد صلاة العشاء حضر حمدان إلى مكتب يحي وطلب من رجل الأمن أن يبلغه أن حمدان بالخارج ويريده فى أمر ضروري قابله فطلب منه حمدان أن يكون وسيط صلح بينه وبين الفوارس بأن يدفع الدية التى يطلبونها ويكفوا عن ملاحقته.

أستغرب يحي من طلب حمدان وسأله:

- أنت جيت لي أنا ليه أنت عارف طريق دار الفوارس وأنا لسه جديد هنا.

قال حمدان بخبث:

- يا بيه أنت الخير والبركة وأنا تعبت وعايز أشوف شغلي وعايز الموضوع يبقي رسمي وأمام الكل.

وعده يحي بأن يتوسط له كما طلب

وفى الصباح استدعي يحي فريدة وزوجها إلى مكتبه وكان حمدان فى انتظارهم.

استغربت فريدة من وجوده وقبل أن تسأل أخبرها يحي برغبة حمدان بالصلح ودفع الدية.

قالت فريدة بغضب:

- يعنى أنت بتعترف إنك قتلت الحاج محمد؟

رد:

- لا أنا مقتلتيش حد، لكن لو أنتِ بتتهميني تأخذي الدية ونرتاح ونشوف شغلنا.

وقفت أمامه حتى أنه أرتعد خوفاً، ثم صرخت فى وجهه:

- دم الحاج محمد ما يساويه دية، القاتل يتقتل بالشرع والقانون.

خرجت فريدة مسرعة من مكتب يحي، أسرع سلمان ورائها محاولاً تهدئتها أما حمدان فلا زال يرتعد من خوفه.. نظر إليه يحي مستغربا وقال بتهكم:

- أد كده بتخاف منها؟

لملم حمدان نفسه وقال:

- عيب يا بيه أحنا صعايدة، وحمدان الضبع مش بيخشي حد أنا عامل حساب إنها حرمة ومجروحة وبدور على ثأرها أنت مش عارف عادتنا لأنك مش مننا، الثأر نار بتآكل ما بتخلي أخضر ولا يابس، وأنا عملت اللى علىّ.

رد يحي:

- مفهوم يا حمدان أتفضل ولما يكون فى جديد ها تصل بك.

هرول حمدان إلى داره وعقله يدور بما سيفعله مع هذه المرأة التى وقفت أمامه فرأي عينيها عينين أسد، قال فى نفسه:

- حقيقي صدق اللى قال حريمهم رجالة براوة عليك يا فريدة.

جلس فى داره لا يدري ماذا يفعل وماذا سيقول لبرهان بيه.. عصفت الحيرة برأسه فى نفس الوقت الذى كانت فيه فريدة تدرك ماذا تريد وكيف تصل إليها فحين جلوس حمدان فى صحن داره حائراً كانت هى وسلمان فى طريقهما إلى الجبل:

قابلهما الحاج شعلان ورحب بها قائلا:

- طول عمري بحب الفوارس وبقدرهم، لكن أنتِ اسم على مسمى، أنا ما قبلت ولا ها قابل زيك.

ردت:

- كتر خيرك يا حاج، أنا مجرد واحدة من الفوارس.

أخبرت فريدة الحاج بكل ما حدث ولم تنس أن تطمئنه أنها لم تذكر عنهم شيئا للعميد يحي.

أخبرها هو أن هذا لا يشغله وما يشغله أهم من ذلك فمنذ عملية الحمل والتى يظن أن حمدان نفسه هو الرجل المتخفي من ساعاتها لم يحدث شيئاً جديداً، لكن هو يتوقع عمليات أخرى ولذلك يركز على المقبرة الأثرية التى يتوقع أنهم يبحثوا عنها وأنها عمليتهم القادمة لذا

يقومون بمسح للأماكن حول الجبل وأنهم وجدوا فى البر الشرقي للجبل تلاً كبيراً من الرمل الكثيف وينوي حمزاوي هدمه لأنه يتوقع أنه يفعل فاعل وربما تكون المقبرة تحته، لذلك يتناوبون على مراقبته وإزالة التل سيستغرق وقتاً طويلا.

-١٤-

عادت فريدة متفائلة لسير الأمور فالرمال التى ركدت سنين يبدوا أنها ستتحرك وتظهر ما أخفته الأيام وربما يزول الظلم ويحل مكانه العدل فيتنفس الناس الأمان فحينما يكون العدل يجد الناس الأمان نامت قريرة العين ومع أول خيوط الفجر استيقظت على رنين الهاتف، وإذ بفارس يخبرها أن الحاجة حليمة اشتد عليها المرض وترغب بالحضور للعزبة وأنهم أتون جميعاً على أول طائرة، ولم يمر أسبوع على وصولهم العزبة حتى زادت وطأة المرض على الحاجة رغم أن فريدة أحضرت لها أمهر الأطباء وقامت بعمل كونسولتو لها وعرضت عليهم أن تسافر بها للخارج فأجمعوا جميعاً أنه لا داعي لذلك فهذه علامات النهاية وربما لا تكمل يومها طلبت الحاجة أن تغتسل ثم نامت على سرير الحاج الذى لم تقربه منذ مقتله.. أمسك فارس بإحدى يديها وفريدة باليد الأخرى والأحفاد من حولها والست نفيسة وهنية تحت قدميها وسلمان بجوار فريدة يمسك بيدها الأخرى والصمت يلفهم جميعاً، تخترقه قطرات دموعهم الحارة.

قالت بصوت متهدج:

- ما عاد بكا بعد اليوم، أنا اشتقت للحاج وجي اليوم لنتقابل..

نادت على سلمان اقترب منها، شدت على يده وقالت:

- أوعدني ما تهمل فارس وولادة وفريدة وولادك فى نني عينك.

قال سلمان بجلد:

- اطمني يا حاجة كلهم فى قلبي وأغلى من عمري.

التفتت إلى فارس قائلة:

- أمانة عليك ما تنسي أرضك وناسك.

قبل يدها وقال:

- اطمني يا حاجة حد برضه ينسي عمره ونفسه.

قالت هملوني لوحدي واقفلوا الباب.

خرجوا جميعا امتثالاً لطلبها، رفعت يدها ثم ابتسمت وقالت:

- أهلاً يا حاج أتوحشتك كتير، خذ بأيدي ثم نطقت الشهادتين وأسلمت الروح لبارئها.

تمت إجراءات الدفن سريعاً، بكاها الجميع وكانت فريدة أشدهما بكاء وحزناً، خيم الحزن على دار الفوارس بل لف العزبة كلها فلا يوجد دار بها لم تكن للحاجة إحسان إليهم، وأصر الحزن ألا يداع جار الفوارس

فلم يمض سوي شهر حتى توفيت الست نفيسة هى الأخرى فيبدو أنها أحبت الحاجة حليمة فلم تطق بعادها ولحقت بها إلى الدار الآخرة مطمئنة القلب لوجود أحفادها أمانة فى دار الفوارس وفى نفس السنة انتقل الحاج صالح إلى رحاب ربه قرير العين مطمئن القلب لوجود سلمان بجوار الفوارس يحميهم ويحارب الظلم معهم وكأن هذا العام عاماً للحزن والوداع، فلم يترك الموت عزبة الفوارس بدون أن يطرق باب حمدان فقد خطف منه ابنته زهرة قلبه التى كانت تعوضه عن غياب سالم.

خلا بنفسه وبكى فراق ابنته ومن قبلها سالم الذى لا يعرف له مكاناً منذ الحادثة المشئومة، لام نفسه أن تركه يذهب وقد ظن أنه سيعود بعد فترة عندما تهدأ نفسه لكن لم يعد إلى الآن.. اعترف لنفسه أنه السبب فى هجره له فقد كان شديد القسوة عليه حتى جعله يهرب منه، تذكر أم سالم التى غدر بها وقد عاشت عمرها كله لم تخالف له أمراً، لا خرجت من داره إلا بأذنه، هى ليست كسنية التى تأخذ كل ما تريد شاء أم أبي، صحيح هى ليست بجمال سنية لكن كانت جميلة الروح والقلب وطالما حذرته من قتل الحاج محمد، كانت هى وابنها انقي شئ فى حياته بل الشئ الوحيد الطاهر فى عمره كله، زادت وطأة الحزن عليه فصرخ من أعماقه:

- أنت فين يا سالم، تعالي يا ولدي فى حضني أنا محتاجك جنبي.

لم يكن سالم أسعد حظاً من أبيه فهو رغم تعينه معيداً بالجامعة وعمله مساءً عند الأستاذ عمر وفوق ذلك حصوله على الماجستير ثم الدكتوراه فهو لا همه له إلا العمل والدراسة لينشغل بها عن همومه التى تحاصره حتى أن الابتسامة لا تزور شفتيه إلا نادراً وهو من شدة خوفه أن يدرك أحداً أنه ابن حمدان الضبع لا يصادق أحداً ولا يتكلم إلا قليلاً فلا أقارب ولا أصداء باستثناء الرجل الطيب الحاج وهدان الذى احتواه وعلم بسره فيحنو عليه ويحزن لوحدته ويدعو اللّٰه أن يفرج كربه، حتى محمد ابن فارس الذى يعمل فى مكتب الأستاذ عمر ورغم حبه له إلا إن الأحاديث بينهم عابرة خارج نطاق العمل حتى شعر محمد أن سالم يلفه غموض وكأن نفسه حدثته أن هناك سراً فى حياته يريد أن يخفيه عن الجميع فاحترم ذلك وصار لا يحدثه إلا إذا بدأ سالم هو الحديث.. وسالم يحاول جاهداً أن يخفي مشاعره تجاه محمد فقد أحبه لكن الحاجز بينهم لن تزيله بعض المشاعر حتى لو كانت صادقة إلا بعد دفع فاتورة الحساب كلها كاملة غير منقوصة حتى لو لم يكن هو من أخطأ فهذا قدره أنه ابن حمدان الضبع ولا مفر، لقد فكر كثيراً لماذا هذا العداء والكره الذى يملأ قلب والده لعائلة الفوارس إنها عائلة نجبر كل من يتعامل معها على حبها واحترامها وأياديها الطاهرة والنقية

تمتد حتى خارج العزبة بل تسع مصر كلها، أهي الغيرة لأنه لم يستطع أن يكون مثلهم؟! ربما، أو لأنه يراهم حجرة عثرة فى طريق طموحاته وخططه التى لا تنتهي والتى لا يمنعه حتى حزنه، حمدان لا يضعف فسرعان ما استعاد توازنه ليتدبر أمره ويدرك نفسه قبل أن تضيق الحلقة على رقبته أكثر من ذلك فتهلكه حتى رجاله لم يجد منهم من يستطيع الاعتماد عليه كما كان عطية، فمغاوري أصابه الوهن لكبر سنه وشباب العزبة تغيرت طموحاتهم بعد أن انفتحوا على العلم ووفرت لهم فريدة فرصة العمل داخل العزبة وخارجها حتى وصلت بهم إلى القاهرة بل سافر عدد من الشباب بعقود عمل خارج مصر بعد أن زادت مهارتهم وهذا ما كانت تهدف إليه فريدة أن تخنق حمدان دون أن تلمسه وفى هذه الأثناء وهو ينادي فلا يسمعه مغاوري وإن سمعه لا يستطيع أن يتحرك إلا بصعوبة، أتاه شاب قوى البنية ذو شارب طويل وذقن مهملة، يرتدي جلباب مهلهل طلب منه العمل كخفير فوافق حمدان على الفور دون أن يسأله أهو من العزبة أو من خارجها هو سؤال واحد:

- اسمك أيه يا بنى.

- منتصر يا بيه.

ضحك حمدان وقال:

- منصورين بإذن اللّٰه، استلم بندقية من مغاوري وهتبقي معايا زي ظلي.

- أنا يا بيه من أيدك دى لأيدك دى اللى تأمر به.

وفى خضم هذه الأحداث انشغلت العزبة عن رجل غريب نزل بها أبيض الشعر والذقن، تبدو عليه علامات التقي والصلاح وفى صحبته شاب وسيم مهندم لم يبرح المسجد فى حين طاف الرجل بالعزبة كلها وكانت له أطوار غريبة حيث ينظر لأهلها ويتفحصهم كأنه يبحث بينهم عن شخص يريده، ثم يمشي ورائهم يتسمع أحادثهم وعند الآذان يدخل المسجد يصلي ويتضرع باكياً، لم يهتم أهل العزبة لأمره فقد ظنوا أنه أحد الدراويش.

مضي النهار وصلي الرجل الغريب العشاء وهم بالانصراف، أمسك درويش بيده قائلا:

- سبحانه قادر على كل شئ، حليم ستار، يقبل التوبة، لكن مرادك هناك عندك، ارجع مكانك وربنا يريح بالك، فرجه قريب، بكي الرجل وعاد من حيث أتي.

أسلم عطية أمره لله ولم يبق إلا التعلق بأهل البيت والدعاء لله لعله يغفر له ويفرج كربه، ويبدو أن الله سبحانه قد استجاب له ففي يوم وبعد صلاة الجمعة كان أولاده حسان وصلاح وحامد يؤدون الصلاة بمسجد الحسين فعرفوه رغم تغير شكله، لم يكلموه وأسرعوا إلى أمهم ليخبروها، أسرعت معهم إلى المسجد رأته فتيقنت أنه هو، تعجبت لما آل إليه حاله.

كان لقاؤهم شجياً يفتت الصخر الأصم.

اقتربوا منه فعرفهم بقلبه قبل عينيه ضمهم لحضنه وأدرك أن درويش كان عنده حق عندما أخبرهم أنا ما يبحث عنه بجواره وليس بالعزبة فاضت دموعهم كالسيل، وهو يشير بيده إليهم فأدركوا أنه لا يستطيع النطق فازداد بكاؤهم من أجله، أخذ يقبلهم فى وجوههم تارة وعلى أيديهم تارة أخرى وروحية تنظر عن قرب ودموعها لا سلطان لها عليها الدموع، طوال هذه السنين تكتم آلمها بين ضلوعها وتحبس دموعها تحت الجفون حتى لا تؤذي قلوب أولادها فتضعف همتهم، وها هى قد نجحت فى تربيتهم واجتازت الاختبار بامتياز كلهم متفوقون لم يتعثر منهم أحد وهى زاد رزقها وفاض بالعمل عند الأستاذة راوية وأحبها الجميع ولم يهتك لها ستراً، كفكفت دموعها ورسمت ابتسامة رضا على وجهها وأشارت لأولادها ففهموا ما تريد، سجد عطية لله شكراً ثم

ذهب مع أولاده إلى دارهم وبترحيب من والدتهم فهي لا تزال زوجته وهو ابن عمها وقد صار ضعيفاً فى حاجة إليهم.

لم تستطع روحية أن تعنفه كثيراً، فقد ذكرته بتحذيرها له أن دم الحاج محمد سيكون وبالاً عليه وقد كان.

حاولت أن تفهم منه ما يريد أن يخبرها به وبعد صعوبة فهمت أن حمدان هو من فعل به ذلك وأنه يريد أن ينتقم منه، ظل طوال الوقت يُمسك بأيديهم وكأنه يخشي أن يضيعوا منه مرة أخرى،

هدأت من روعه وأفهمته أنهم لن يتركوه مرة أخري.

وفى الصباح ذهبوا معه للدكتور ماجد ليزف إليه البشري أنه وجدهم وعندما رآهم سعد من أجله كثيراً وأوصاهم به خيراً، شكرته روحية على رعايته له طوال هذه السنين الماضية قالت:

- جميلك فى رقبتنا العمر كله مهما عملنا مش هنقدر نكافئك.

عادوا للمنزل وعطية فى قمة سعادته وكأنه عاد به العمر عشر سنوات وفى يوم بعد صلاة الفجر قالت له روحية:

- لو عايز توبة نصوحة يبقي لازم تروح للفوارس وتعترف بكل حاجة واطلب منهم السماح وساعدهم على الخلاص من حمدان لأجل ما تطهر العزبة.

أخذ عطية يشير بيديه، فهمت زوجته أنه يريد قتل حمدان بنفسه، اعترضت قائلة:

- قتل تاني يا عطية يكفياك، البلد فيها قانون، هما لو كانوا عايزين يقتلوه كانوا قتلوه من بدري، هما عايزين يطهروا البلد منه ومن أتباعه، فارس هيسامحك خصوصاً لو ساعدتهم وكشفت مصايب حمدان.

اقتنع عطية بكلامها وقرر أن ينفذه فى أقرب وقت.

ذهبت روحية إلى راوية بوجه غير الذى كانت تعهده فهي باسمة الثغر مقبلة على الحياة تتحدث كثيراً على غير عادتها سعدت روحية بذلك وعندما سألتها عن السبب سردت لها قصتها من أول زواجها بابن عمها الذى أحبته منذ صغرها حتى لحظة دخولها الآن عليها ثم ختمت كلامها بأن زوجها سيذهب إلى أهل القتيل ليطلب منهم العفو، شجعتها راوية قائلة:

- أنا فخورة بك يا روحية، رغم إنك غير متعلمة لكن أحسن بكثير من بعض المتعلمات، رفضتي الظلم والحرام شجاعة وإصرار وكافحتي لغاية ما ربيتي ولأدك وعلمتيهم، أجرك عظيم عند اللّٰه سبحانه.

قالت راوية ذلك وهى لا تعلم أن ما تقصده روحية هى فريدة صديقتها وكانت مطمئنة القلب مرتاحة البال لا تدري أنها ستكون فى امتحان أصعب من روحية لو تأكدت شكوك العميد يحي.

أعطت روحية الأيام أكثر مما تتمني وأرتها وجهها الحسن فهل يا تري ستعطي سالم ولو بعض مما يريد فهو لا يزال يشعر بالغربة رغم نجاحه فى عمله وحب من حوله له إلا أنه بلا أهل يسكن إليهم ولا يزال يتخفي كأنه المجرم، يحمل أوزار أبيه على كتفيه حتى أثقلت كأهله يدافع فى القضايا عن المظلومين ويأتي لهم بحقهم إلا قضيته لا يستطيع أن يقترب منها حتى حق الدفاع لا يجد سبيلاً إليه تذكر أمه الحنون وكيف تخلي عنها طوال هذه السنين ولا يعلم عنها شيئا، هرب من الماضي ولم يحاول ولو مرة أن يقترب ليسأل عنها غلبه البكاء كيف لو كانت قلبها غير راض عنه كيف لو رحلت من الحياة بدون أن يطلب منها أن تسامحه، ما أثقل حمله وهو لا يجد يداً حانية تربت على كتفه أو صدراً حنون يحتويه، لم ينبض قلبه إلا لفتاة واحدة كانت ولا زالت نجماً متألق فى السماء وهو تميد به الأرض وهو يدور على رأسه، منذ صغرها

يختلس أليها النظرات من بعيد والآن يذهب أمام كليتها ينتظر بالساعات ليراها عند دخولها ثم يعود مكانه مهموماً محسوراً.

وفى يوم فاضت عليه همومه فجلس إلى الحاج وهدان ليخفف عليه حمله بالحديث معه وروي حكايته منذ خروجه من بلده حتى ساعته هذه، اعتصر قلب وهدان ألماً لأجله وأوصاه بالصبر لكن قال له:

- مفيش طريق للراحة غير أنك تروح لفارس وتبرئ نفسك من أفعل أبوك وتطلب منه السماح على سكوتك طول السنين اللى فاتت.

استراح سالم بعد حديثه مع الحاج وهدان وأخذ يفكر فى اقتراحه فرأى أنه الأفضل له على الأقل سيريح ضميره وهذا يكفي لراحة باله.

وهكذا عادت الأمور تغلي كالمرجل سواء بالقاهرة أو العزبة ففي القاهرة عقد عطية العزم على السفر للعزبة ليسلم نفسه للفوارس ويعترف بكل ما فعل ويساعدهم عل التخلص من حمدان ليلقي ربه مبرئاً من آثامه، فى حين قرر سالم أيضاً السفر للعزبة وكفته بين يديه حيث يذهب للفوارس ويخبرهم بكل ما سمعه وكان السبب لهجرة بلده من سنين حتى يزيح الهم الجاثم على صدره حتى لو أضطُر أن يدفع ثمن جريمة لم يرتكبها.

أما العميد يحي فقد وصلته معلومات خطيرة عن عملية كبيرة ستتم فى الأيام المقبلة لكن هناك بعض الرموز التى لم يفهمها الشاب الذى يعمل بمكتب السبعاوي والذى توسطت له فريدة فهو من يقوم بإرسال الأخبار للعميد يحي.

أما فى العزبة فقد رأي الشاب الذى يعمل خفيراً لدي حمدان رجلاً فريباً آتي لزيارته غير برهان بيه واستمع لما جري بينهما فقد صار مقرباً من حمدان اتصل الخفير بالعميد يحي وأخبره أن الوقت قد حان لعملية كبيرة وأن المكان ليس بالجبل ولكن فى طريق مهجور بين الجبل والعزبة لا يقترب منه أحد لأن الديابة تتخذه مأوى لها.

من أجل كل ذلك قرر فارس العودة إلى العزبة سريعاً فيما يبدو أن وقت الحساب قد اقترب ولابد أن يكون بجوار عمته، ترك أسرته وذهب باكراً إلى دياره.

سعدت فريدة برؤيته ولم تبد اعتراضا فيما يبدو أنها أيضاً توقن أنه وقت الحساب، تجمعت الخيوط بالعزبة وتوالت الطوارق على باب الفوارس، كان الطارق الأول هو سالم وكفنه على يديه.. استقبله فارس وسلمان وكانا متماسكين إلا إن فريدة كان يبدو عليها التوتر

لكن جلست إليهم لتستمع لما يقوله سالم، روى لهم كل ما سمعه فى يوم الحادث ثم عقب:

- كل ما أملكه روحي لو كانت نرضيكم أنا مستعد ومعايا كفني.

أسرعت فريدة إلى حجرتها ثم هرولت إلى حجرة الحاج، سحبت بندقيته من على الحائط وسلمان يجرى ورائها محاولاً تهدئتها لكن بلا فائدة كانت فى قمة غضبها، وقبل أن تخرج من حجرة الحاج نظرت لصورته على الحائط وكأن صوته يخرج من كل جدران حجرته.

- أوعاكِ يا فريدة تخالفي وصيتي، سالم فى داري وبرئ من دمي، وأنتي لازم أيدك تفضل طاهرة من دم أي برئ.

استغفرت ربها وانهارت باكية فى حضن سلمان، ضمها بحنان واحتواها بين يديه قائلا:

- اصبري يا فريدة، أحنا هنأخد ثأرنا، لكن من القاتل مش من البرئ.

كان فارس أكثر تماسكا ولا يزال يجلس أمام سالم قال له:

- يا ريتك ما كنت هربت كنت وفرت علينا خمس سنين عذاب.

رد سالم بحزن:

- سامحني أنا بشر صحيح أنا ضعيف مقدرتش أواجه وانسحبت.

قال فارس:

- ربنا هو المسامح، لكن الذنب مش ذنبك وأحدك، دا ذنب ناس العزبة اللى قتلهم الخوف وخلاهم عميان.

قبل أن يمض اليوم كان الطارق الآخر عطية ومعه زوجته روت لهم كل ما حدث ثم أخبرتهم برغبة عطية أن يمهلوه حتى يستعدهم فى القبض على حمدان ثم يفعلوا ما يشاءون فهو يريد الخلاص من ذنوبه.

ذهبت فريدة إلى حجرة الحاج محمد، أمسكت ببندقيته وقفت أمام المرآة نظرت إلى نفسها وأخذت تحدثها:

- ها يا فريدة وصلتي لنهاية الطريق قاتل أخوكِ فى دوارك والقصاص حق ربنا ناقص أيه، بندقية الحاج فى أيدك مش ناقص غير تضغطي على الزناد.

وجدت صورة الحاج على المرآة يحدثها:

- هو دا اللى أنت عايزاه يا فريدة تقتلي عطية وبعدين أحنا كنا مختلفين أنا عايز أحميك من الثأر واحمي أهل البلد من حمدان وظلمه وأنتِ عايزه تخلصي من حمدان لو قتلتي عطية دلوقتي هتقضي على حمدان ولا

هتعطي حمدان فرصة يفلت من أيدك ومن أيد الحكومة وتفضل العزبة غرقانه فى ظلم حمدان وأعوانه.

استجمعت فريدة نفسها وضعت البندقية مكانها واستغفرت ربها، جلست على سجادة صلاة الحاج وصلت ركعتين لله ثم رفعت يدها بالدعاء:

- يا رب اعني على نصرة الحق، يا رب قويني واهدني صراطك المستقيم.

كان فارس وسلمان يجلسان مع عطية ينهشهما القلق من رد فعل فريدة فقد طال مكثوها بحجرة الحاج، خرجت عليهما وهى فى قمة هدوءها وفى يدها مسبحة الحاج محمد وقالت:

- لازم نروح للعميد يحي حالاً المعلومات دى هتفيده كثير.

روت روحية كل شئ فسأل العميد عطية عن الكهف فعرض عليه أن يذهب معهم ليدلهم على الطريق إليه.

جاءت الساعة المنتظرة، ارتدت فريدة الملس الأسود وحملت بندقية الحاج فى يدها وأصرا أن تذهب معهم، لم يستطع أحد أن يمنعها ولا حتى العميد يحي، صارت العزبة فى هذه الليلة موعداً للحساب جتى درويش لم يتأخر عن الركب فبعد صلاة العشاء حمل عصاه الغليظة

وتوجه بنفسه إلى طريق الكهف كأنه يعرف كل شئ وقال وهو يسرع خطواته:

- جاء اليوم يا بلد صحيح أتأخر كثير لكل ظالم نهاية، اليوم ترتاح روحك يا حاج محمد أنت وغيرك.

كان عطية فى المقدمة ومن ورائه عائلة الفوارس والشرطة وفى المقابل الحاج شعلان ورجاله لحقوا بهم فى المكان المحدد، مر وقت طويل والكل فى ترقب حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، صار الجميع كالأشباح ولا يُسمع إلا صوت الديابة من حين لأخر فيمسك سلمان بيد فريدة وكأنه يريد أن يضمها لصدره لولا وجود الناس حوله لكن هى ثابتة، رابطة الجأش لا يعتز لها رمش.

بدأت الإشارات الضوئية وظهر جمل يركبه رجل يبدو وكأنه السبعاوي بشحمه ولحمه وبعد دقائق خرج من الكهف غريب تحدث مع راكب الجمل:

- فلوسك جاهزة.

- نرى ما اتفقنا، المهم التماثيل كلها معاك هى والبضاعة.

- عيب يا بيه، أحنا شغلنا تمام.

دخل الرجل الكهف ثم خرج ومعه بضاعة بدأ بتحميلها على الجمل والكل فى ترقب ينتظر رؤية حمدان، وبعد انتهاء الرجل من مهمته دخل الكهف ثم خرج شيخ كبير لا يبدو من ملامحه الكثير وفى يده شنطة كبيرة وفى الأخرى شوال كبير.

فك السبعاوي الشوال نظر إليه ثم أغلقه وضعه على الجمل ثم بدأ فى رص الأموال فى الشنطة.

أدرك الخفير أن الشيخ الكبير ما هو إلا حمدان، دفعته شجاعته للهجوم على الشيخ ليقتله فاخرج مسدسه وقبل أن يطلق الرصاص كان هناك وابل من الرصاص يخرج من الكهف صوب الخفير.. ألقي عطية بنفسه أمام الخفير ليفتديه، سقط غارقاً فى دمه.

تبادل إطلاق النار بين الجميع، استطاع حمدان الهروب فى الطرق الملتوية فى البر الشرقي للجبل، أسرع خلفه فارس وسلمان وورائهم شعلان ورجاله والعميد يحي، خلعت فريدة الملس وبقيت بالبنطلون والجاكت والبندقية فى يدها وأسرعت معهم لكن درويش أسبقهم إليه ولا يملك إلا عصاه أطلق عليه حمدان النار فأراده قتيلاً

لم يستطع حمدان مواصلة الفرار، فقد أراد القدر أن يُحيك نهايته فى هذه الساعة لترتاح الأرواح التى اغتالها بظلمه وجبروته ولتتنفس

عزبة الفوارس نسيم العدل والأمان، تم حصار حمدلن من جميع الجهات، قال يحي:

- سلم نفسك يا حمدان.

صرخ حمدان بجنون:

- أنا حمدان الضبع، محدش يقدر يكسرني، أنا معايا أكبر ناس فى البلد أقدر أحرقكم كلكم.

أتاه فارس من ظهره، ضربه على رأسه وأتبع ذلك بلي ذراعه خلفه فسقط المسدس من يده ووقع حمدان على الأرض.. أسرعت فريدة إليه وصوبت البندقية إلى رأس حمدان وقالت:

- أنا قلت لو مائة قتلوا الحاج أنا كفيلة بهم.

أسرع إليها سلمان وانتزع البندقية من يدها ووقف فى مواجهة حمدان وفى سرعة البرق خطف مسدسه من على الأرض وأفرغه فى ظهر سلمان، كان حمدان أسرع من العميد الذى حاول منعه لكن ضربه رصاصة فى قدمه، لم تستوعب فريدة لحظة ما حدث سقط سلمان وهو يمسك يدها، صرخت فريدة ونزلت على ركبتيها وضمت سلمان إلى صدرها ودمائه تنزف بغزارة وأنفاسه تتقطع رويدا.. رويدا.

قال حمدان بشماتة:

- شفتي يا فريدة أنا برضه اللي كسبان حرمتك من أبوكِ وأخوكِ وزوجك أبو عيالك ثم ضحك بهستيرية وهو يصرخ أنا اللي كسبان يا فريدة.. أنا اللي كسبان.

أسرع فارس إلى سلمان والعميد يتصل بالإسعاف.

أمسك سلمان بيده الأخرى بفارس وقال بصوت متقطع:

- وصيتك عمتك وولادي، أرجع البلد وربيهم فى بلد أبوهم.

نظر إلى دموع فريدة وقال:

- حبيبتي كان نفسي أربي ولادنا سوا لكن قدر ربنا وأنتي مؤمنة خلى بالك منهم ومن نفسك أحكى لهم عني وقولي لهم أبوكم عاش ومات أسد..

سكت صوت سلمان وكذلك انقطعت أنفاسه قبل أن تصل سيارة الإسعاف.

صرخت فريدة وصوتها يتردد فى الجبل:

- آه يا قلبي.. أه من وجع الفراق.. مكتوب على أودع كل الحبايب.

أخذها فارس فى حضنه محاولاً أن يهدئ من روعها، انتزعت نفسها منه وأسرعت إلى بندقيتها كان العميد يحي أسبق إليها منه وقال لها:

- مفيش داعي تنجسي أيدك بدمه، أنتِ أكبر من كده، هو مقتول.. مقتول، لكن لما نعرف منه باقي شركائه، القضية قضية بلد مش ثأر لك لوحدك.

كان المنظر مهيباً حيث أشعل رجال الجبل النيران ليضيئوه وخرج أهل العزبة ليروا حمدان وهو مقيد بالأصفاد لكن فوجئوا سلمان غارقاً فى دمه يحمله فارس على ذراعيه، أصابهم الذهول وتعالت الصرخات والنحيب وعندما رأوا حمدان صاروا يقذفونه بالحجارة والكل يتسابق لينال منه، خلع الخفير الطاقية من على رأسه والشنب من على وجهه، ثم وضع الأغلال فى يد حمدان، نظر حمدان مذهولاً وسكت عن عبارته أنا اللي كسبان يا فريدة التى كان يرددها طوال الطريق سأله:

- أنت مين.

رد:

- أنا من الأسود.. عمرك شفت ضبع قهر أسد، أنا سيف ابن فارس كان حلمي أخلص البلد من شرك.

اتجه إلى العميد ورفع يدا وقال:

- تمام يا أفندم.

ثم أسرع إلى والده وهو يحمل سلمان على ذراعيه، قبل سلمان ثم ذهب إلى فريدة احتضنها وهى تجر قدميها لم يستطع أن ينطق بكلمة كانت دموعها الأسبق وهى تختلط بدموع فريدة ولا مجال للكلمات لن تذهب المرارة التى تشعر بها.

كان سالم لا يزال بالعزبة لكن لم يشهد الركب، سمع أهل العزبة يهللون فرحين بالقبض على حمدان، أسرع إليه فى القسم وعندما رآه حمدان قال:

- جاي تشمت فى أبوك؟

بكي سالم قائلاً:

- عمرك شفت ابن يشمت فى أبوه، أنا جيت أسألك عن أمي.

سكت ولم يرد

سأله:

- صحيح اللى سمعته، أنا ممكن أسامحك فى حاجات كتير إلا أمي.

واصل حمدان صمته.

قال سالم:

- يا ريتك كنت قتلتني، كنت ارتحت، تقدر تقولي تركت لي أيه أعيش له وبه.

رد حمدان بمسكنة:

- تركت لك أموال وأطيان، عملت كل دا عشان عيلة الضبع يبقوا أسياد البلد وكله عشان خاطرك.

عارضه سالم بحدة:

- لا أنت كنت بترضي غرورك وبتشبع شهوة الانتقام عندك، عملك أيه سلمان عشان تقتله، كان بيمنع فريدة إنها تقتلك.

لم تقو رجلا سالم على حمله، اهتز جسده من النحيب واختنقت الكلمات فى حلقه، أدار وجهه عن أبيهـا، وقبل أن ينصرف. قال حمدان بمسكنة:

- ماشي وتارك أبوك فى محنته وأنت محامي.

رد سالم:

- أدافع عن قتلك للحاج محمد ولا أمي ولا المسكين درويش ولا الشهم سلمان، ولا من ضاع من الشباب بالمخدرات، ولا ضياع بلد بتبيع تاريخه، القضية كبيرة والحكم فيها معروف، أنا هابعت لك محامي من مصر.

ترك سالم العزبة مرة أخرى ولا زال الماضي يلاحقه، دكتوراه فى القانون ومحامي متألق لكن ابن حمدان الضبع المتهم بالعديد من القضايا، قتل ومخدرات وسرقة آثار وجده خائن للوطن باع الفدائيين للإنجليز ولا أحد يذكر أبوه الطاهر الذى مات فى ريعان شبابه.

تم ترحيل حمدان، لكن لم تستطيع الناس أن تفرح من قلبها فقتل سلمان رسم الحزن على كل الوجوه.

أقام فارس سرداقاً كبيراً للعزاء فى موتاهم الحاج محمد وسلمان ودرويش، كان أول من بالعزاء الحاج قناوي الضبع والحاج شعلان وحمزاوي والعميد يحي.

وقبل أن ينتهي العزاء اختلس العميد بالحاج شعلان وقال له:

- سمعت ببطولاتك، حرام عليك تحرمنا من خبراتك وتدفنها فى الجبل، الصعيد محتاج لك، أحنا ممكن نتعاون مصر محتاجة جهدنا كلنا أنا من غيركم مش كنت ها اقدر أعمل حاجة.

رد الحاج شعلان:

- مفيش جبل تاني، طالما خلصنا من الفساد اللي كان معشش فيها يبقي فاضل نبنيها وكمان نحارب فى كل حته فيها فساد وأنا لك عندى مفاجأة.

سأله:

- خير إن شاء اللّه.

- رجالي هدموا الجبل الرملي ولقينا تحته مقبرة فيها آثار كثيرة وسرداب بيوصل إلى مكان يشبه المعبد.

سعد يحي بالخبر واتصل بهيئة الآثار لتتخذ الإجراءات اللازمة بعد العزاء، اجتمع الجميع فى دار الفوارس وبدأوا يتحدثون فى شئون العزبة قال يحي:

- العزبة هتبقي واحدة من أهم الأماكن السياحية بجنوب الصعيد بعد الكشف الأثري الجديد، صحيح أنتم دفعتم ثمن غالي لكن أسمائكم هتتكتب بحروف من نور فى التاريخ، وأنا حكيت لأولادي عنكم.

قالت فريدة وكانت تبدو رابطة الجأش:

- الحمد لله مدرسة متكاملة ومعهد أزهري وفصول محو أمية ومركز كمبيوتر والمستشفي قربت تخلص وبكره نقضي على المرض والجهل اللى أخرس الألسنة وطفئ البصيرة وزرع الخوف فى قلوب ناسنا، العلم هو المستقبل لشبابنا.

قال الحاج شعلان:

- أنا عندي استعداد لعمل كوادر لتدريب الشباب على فنون القتال وتنمية روح الوطنية والفداء للوطن وكمان تعريفهم بتاريخ أجدادهم.

أعجبت الفكرة يحي ووعد شعلان بمساعدته بتنفيذها وإعطائها التراخيص اللازمة.

قال فارس:

- الحاج محمد كان عنده حق الفقر والمرض بيهينوا الإنسان ويجبروه أنه يبيع نفسه.

أخيرا رحل الخوف والقهر والظلم عن عزبة الفوارس وأشرقت الشمس عليها بدفئها بعد أن عانت جدرانها من برودة الظلم وقسوته فامتلأت النفوس بدفء العدل والأمان وبدأت تروي ظمأها بأمل وليد أن تداوي الأيام جراحها، ربما تلتئم وتستعيد بهجتها.

استقر فارس وأسرته بدارهم ليعود كل شئ كم كان.

سألته فريدة:

- طيب مين هيراعي مصالحنا بالقاهرة.

رد فارس بأدب:

- عمتي، أنا مقدرش أعيش بعيد عن عزبة الفوارس، أنا فلاح بتنفس هواء أرضي، ترابها أرويه بعرقي، دى حياتي، لكن أنت حياتك كانت هناك.

ردت هى:

- لا يا فارس كنت هناك بعقلي لكن قلبي كان معاكم، زمان تركت بلدي غصب عني، معقول دلوقتي اتركها بخاطري، أنا برضه صعيدية اتولدت هنا وولادي أتولدوا هنا، والغاليين كلهم مجفونين هنا، أزاي أبعد عنهم، العيشة معاكم بالدنيا وما فيها، أنا هسافر أرتب أموري وأرجع تاني.

-١٥-

سافرت فريدة للقاهرة، ذهبت إلى منزل صديقتها راوية فلم تجدها، ووجدت بكري منكس الرأس حزين وكأنه لم يستوعب الأمر بعد، كيف يكون السبعاوي حماه رجل البر والإحسان تاجر للمخدرات والآثار.. سألته عن راوية أخبرها أنها أصيبت بانهيار عصبي ولازالت فى المستشفى، شدت من أزره ونصحته لا يتخلي عنها فهي أم أولاده ولا ذنب لها فقد خدعها أبوها كما خدع الجميع.

ذهبت للمستشفى لرؤيتها وبمجرد رؤية راوية لها ارتمت فى حضنها وانهارت باكية فأخبار القضية تملأ الصحف.

قالت فريدة:

- أنتِ أقوى من كده وربنا قال فى كتابه العزيز: "لا تزروا وزرة وزر أخرى" لازم ترجعي قوية وتربي ولادك على المبادئ اللى أتربينا عليها.

ذهبت فريدة بعدها للشركة وعقدت اجتماع موسع وكلفت بكري وعمر بالمسئولية الكاملة عن الشركة وعن مدينة الأمل ووعدتهم أن تقعد معهم اجتماع شهري لتتابع سير العمل وأنها ستتواصل معهم دوماً عند وجود أي مشكلة.

فوعدوها أن تسير الأمور كأنها فى وسطهم.

عادت فريدة سريعاً إلى عزبة الفوارس، دخلت المنزل، نادت على محمد ابنها، احتضنته.

قال لها:

- وحشتيني يا ماما كنت خايف مترجعيش انهارده الحمد لله رجعتي، لكن بابا وحشني هو مش ها يرجع تاني.

دمعت عيناها، مسحت دموعها سريعاً وقالت:

- لا بابا عند ربنا أحنا اللى هنروح عنده لكن هو قالي إنك هتخلي بالك من إخواتك ومني وأنك وأنت الراجل دلوقتي.

رد محمد:

- طبعا أنا راجل وأسد زى بابا وأنتي وأخواتي محدش يقدر يقرب منكم طول ما أنا موجود أطمني يا ماما.

حضنته وقال:

- طبعاً أنا مطمنه ربنا يخليك لي.

اجتمع كل رجال العزبة وشبابها فى المسجد لصلاة الجمعة وبعد الصلاة كان حسان وصلاح وحامد أولاد عطية فى ركن بآخر المسجد ويبدو فى عيونهم الخوف والقلق.

سأل الحاج شعلان فارس:

- هتعمل أيه مع أولاد عطية.

رد فارس:

- أبوهم قتل الحاج الله يرحمه.

رد شعلان:

- أوعاك تنسي إنه تاب وربنا قبل توبته وإنه افتدي ابنك سيف بنفسه وكمان ولاده مش لهم ذنب.

استغفر فارس ربه وقال:

- عندك حق يا حاج، ربنا يقدم الخير.

عاد لمنزله لأخذ مشورة عمته وكانت نعم المشورة.

ذهب إلى دار عطية بعد صلاة العشاء، قابلته الست روحية بترحاب هى وجميع الأولاد.

قال فارس:

- يا ست أم حسان أنت تعبتي كتير لحد ما ربيتي ولادك يا زين ما ربيتي، من اليوم ما في شغل تاني، كل اللي تحتاجيه فى رقبتي سواء قعدتم فى العزبة أو رجعتم القاهرة.

قالت :

- مش غريب عليكم يا عيلة الفوارس.

قال حسان:

- الحمد للّه أحنا قادرين نرعي أمنا ونصرف على أنفسنا، المهم نعيش فى سلام وأمان مع أهلنا وناسنا فى العزبة.

قال فارس:

- أهلا بكم فى بلدكم.

خرج من عندها مصحوباً بدعواتها فقد كفاها هم أرق مضجعها وأذبل ما فيها سنين طوال.

أما سالم فهو فى موقف لا يُحسد عليه، فقلبه يملأه أسي وحزن يكفيان الناس جميعاً ولا يدري ماذا يفعل فمنذ ترحيل أبيه وهو لم يستطع أن يزوره حتى لا يراه فى هذا الوضع ولا يملك له شيئا، فجرائمه كافية لإعدامه.. جلس إلى الحاج وهدان ليخرج ما في صدره من شجا، ارتمي على صدره باكياً وقال:

- طول عمري كان نفسي بابا يأخذني فى حضنه.

- أنا زيه بالضبط، المهم نفكر ها تعمل إيه دلوقتي.

- همومي كثيرة أولها بابا وآخرها أعماله اللى قضت على أمالي.

- الأول لازم تزوره هو مهما كان أبوك ومحتاج لك، روح له يا بني وقل له يستغفر ربه، أنت محامي وعارف الحكم قبل ما تقوله المحكمة.

- وبعدها ها سافر واترك مصر كلها، أروح بلد تاني ميعرفش حمدان الضبع يمكن أقدر أنسي.

- لا يا سالم آلامك هتسافر معاك.

- طيب أعمل أيه.

- تروح بلدك، ترد للناس حقوقها وتبني مستشفي لعلاج الإدمان ولو بقى من مال أبوك حاجة،عمر بها عزبة الفوارس واللى حواليها دا الشئ الوحيد اللى يغسل آثام الماضي ويداوي جراحك ويخفف الحساب على والدك لو استغفر ربه.

- تفتكر دا كفاية.

- أكيد ساعتها الناس هتنسي جرائم حمدان وهتتكلم عن ابنه سالم وإنه أتنازل عن ماله لأجل العزبة، أبدأ من جديد وفى عزبة الفوارس، والأيام يا بني زى ما لها يد تجرح لها يدى تداوي.

اقتنع سالم برأي الحاج وهدان وذهب لزيارة والده أحضره له المأمور وتركهما بالحجرة، لم يستطع حمدان أن يرفع عينيه لينظر فى وجه ابنه، قال:

- حقك عليّ، أنا فعلا حبيتك أكثر من نفسي، يمكن كنت غلطان فى طريقتي، لكن عمري ما كرهتك.

رد سالم:

- أنا عارف وعشان كده أنا جيت لك.

- جاي تودعني قبل ما يعدموني؟

بكى سالم ولم يستطع أن يرد

قال حمدان:

- لو كنت فكرت يوم واحد أن نهايتي هتكون كده، ما كنت عملت كل اللي عملته، لكن الشيطان شاطر.

ثم بكي وأخذ ابنه فى حضنه وأخذ يقبله ثم قال:

- يمكن لو كان أبويا عاش وهو اللى رباني كنت طلعت صالح زيه لكن اللّٰه يسامحه جدي، رباني على القسوة والغل وكره الناس وهى دى النتيجة.

قال سالم:

- لو قلن لك كلام تسمعه وتنفذه.

- أكيد بعد الأيام ما اثبتت لي إنك كنت صح.

- اقترب من ربنا واستغفر، ربنا بيقبل التوبه.

- تفتكر بعد ما قتلت وسرقت وظلمت ناس كتير.

- ربنا غفور رحيم، أنا ها رجع للناس حقوقها وابني مستشفى لعلاج الإدمان وأوزع باقي فلوسك لله مش محتاج منها حاجة.

- أعمل اللى أنت شايفه صح، أنا أيامي معدودة فى الدنيا، أوعدني إنك تزور قبري، وتدعيلي ربنا يغفر لي، أنت طاهر وربنا هيقبل منك.

دخل المأمور وأنهي الزيارة، قال حمدان لولده قبل أن يذهب:

- أوعاك تيجي المحكمة، عشان خاطري أنا عارف الحكم، بلاش أشوفك مكسور، وأكون أنا سبب كسرتك، مع السلامة يا بني.

امضي سالم ليالي متتالية لا يستطيع الحراك من سريره ولم تجف دموعه ثم استجمع نفسه وذهب للعزبة، سلم فيلا حمدان للمسئولين لتحويلها لعلاج الإدمان بأحدث الأجهزة ويتحمل هو جميع المصروفات، كما رد للناس حقوقهم وزع باقي المال على فقراء العزبة ومن حولها حتى أنه وزع كل الأراضي التى تركها أبوه ولم يبق له إلا خمسة أفدنة، ثم عاد لمصر وأخبر الحاج وهدان بما فعل، أثني على صنيعه وطمأنه أن اللّٰه سيعوضه خيراً وفيراً.

قال سالم:

- وحبيبة يا عمي، تفتكر هتكون من نصيبي، قلبي مش شايف غيرها.

- يا بني تبيت نار تصبح رماد، ربك رحيم وقادر على كل شئ وحبيبة الوحيدة هى اللى تقدر تجاوب على سؤالك.

اسلم سالم أمره لله واشتري داراً بسيطة بالعزبة ونقل عمله بالصعيد واعتذر للأستاذ عمر عن المكتب وأخبر أهل العزبة أن كل من لديه قضية يحضر إليه بلا مصاريف أو أتعاب ثم أجر مكتب بالمحافظة ليبدأ عمله من جديد.

تخرجت حبيبة واختارت تكليفها فى مركز عزبة الفوارس وكان بنيان المستشفي قد انتهي وأخضر فارس جميع الأجهزة من الخارج، وأتت فريدة بفريق من الأطباء المهرة ليديره، كما انتهي سالم من تجهيز مستشفى علاج الإدمان وأحضر لها أيضاً أحدث الأجهزة واتفق مع فريق من الأطباء عن طريق الحاج وهدان ليديروها.

-١٦-

أشرقت شمس السعادة على العذبة بعد غيابها سنين طوال بكن اعترضتها سحابة قاتمة أرقت مضاجعه أهلها، لقد سقط فجأة مغشياً عليه وهو يباشر العمل فى أرضه، حمله الأنفار إلى المستشفي كادت حبيبة أن تفقد وعيها حين رأته فوق أكتافهم، أسرعت به إلى غرفة الرعاية وبدأت جميع الفحوصات، حضرت العزبة عن بكرة أبيها أمام باب المستشفي ليطمئنوا عليه بعد أن طار الخبر فى جمع أرجائها.

توقعت حبيبة أنه مجرد إرهاق خيبت الفحوص ظنها، فارس على مشارف فشل كلوي.

اكتست العزبة كلها بالحزن والألم، تمالكت حبيبة نفسها وبدأت رحلة البحث عن متبرع مناسب، أما فارس كالجبل يتحمل قدره بإيمان ولا يكف عن قراءة القرآن وهنية زوجته لا تبرح حجرته.. راح فارس فى نوم عميق على أثر حقنه أعطتها له حبيبة، كانت زوجته تجلس بجواره، نظرت إلى وجهه وهو نائم مستسلم لقدره كعادته وجهه ملائكي ملامحه لها براءة خاصة، تذكر يوم عرسها وكانت لا تعرف عنه شيئاً إلا أنه ابن الحاج محمد كبير الفوارس، دخلت حجرتها وانزوت على سريرها ضحلي ينتابها بعض الرهبة أقبل عليها برفق وحنان، خلع التاج من على

رأسها بود، حاول الاقتراب منها فبعدت وانكمشت على نفسها، ضحك وأخذ يلاطفها حتى تبدد خوفها، احتواها بين ذراعيه فأحست بدفئه يسري بين جوارحها وكانت أجمل ليلة فى حياتها، أحبته حنانه ورقته.. على قدر قوته وهيبته بل أكثر.. هما لا ثالث لهما، لم يخطر ببالها وهى من الصعيد أن تعرف العشق وروعته.. نعم عرفته فى حضن هذا الرجل.. وكيف لا وهو لم يهنها أو يقهرها أو يأهملها يوما حتى فى أحلك ظروفه، لن تيأس ستفعل المستحيل من أجله، ستعطيه ما بقي من عمرها راضيه كما أشرق على أيامها بسناه، لن تدع هذا السنا ينطفئ أو ينزوي ستكون شرارة له كما كان هو نبراسها.

صرخت على حبيبة، أسرعت إليها هلعة أن يكون قد أصاب والدها مكروه، قالت لها:

- أنا أفديه بعمري، خذي كليتي طول عمرنا بنتقاسم كل حاجة.

احتضنتها حبيبة قائلة:

- ربنا ما يحرمكم من بعض، لكن للأسف فصيلة بابا نادرة ولو متطابقة صحتك مش هتتحمل.

ظهرت فحوص محمد وسيف وحبيبة سلبية، صرخ محمد:

- يعنى أيه بابا هيضيع مننا.

قالت حبيبة:

- لسه فحوص عمتي يمكن تبقي إيجابية.

وفى المساء ظهرت فحوص فريدة وللأسف أيضاً غير مناسبة تطوع الكثير من أهل البلد لكن إما تكون النتيجة سلبية أو يكون المتبرع يعاني من فقر دم أو بلهارسيا، اقترح سيف نشر إعلان بالجرائد عن متبرع بأي ثمن أو السفر للخارج وإجراء العملية هناك.

وبعد تردد وتفكير حسم سالم أمره وذهب إلى المستشفي قابل حبيبة وعرفها بنفسه، ألجمتها المفاجأة فلم تدر بما ترد.

قال:

- أنا واثق إنك ممكن تطرديني، لكن اسمعيني أولاً، أنا عمري ما كنت موافق على تصرفات والدي، وتركت البلد كلها وأظن أنه هو نفسه كفر عن أخطاءه ونال جزاءه وربنا قال: "لا تزرو وازرة وزر أخرى".

قالت حبيبة:

- صدق اللّٰه العظيم، لكن تفتكر دا الوقت المناسب لكلامك أو حتى المكان المناسي.

- أكيد ولازم تصدقيني.

- الموضوع انتهي وأكيد أنت عارف أنا مشغولة جدا بمرض والدي.

- وأنا هنا لنفس السبب، أنتم طلبتم متبرع، وأنا أدامك أهو، أرجوكى الوقت بيمر ومفيش داعي حد يعرف، المهم مصلحة الوالد، على فكرة أنا نفس فصيلة دمه، يعنى إنقاذ والدك مرتبط بقرارك وأنا خلصت كلامي ومستني ردك.

سكتت حبيبة والحيرة تلجمها وقبل أن يهم بالخروج قالت:

- نعمل باقي الفحوص وأنا ها بلغ عمتي.

انفرجت أساريره وشعر بسعادة تعمره، بدأت حبيبة سريعاً فى إجراء التحاليل وهو ينظر إليها وهى تتحرك ذهاباً وإياباً ويتمني ألا ينتهي وقت التحاليل وأن يظل بجوارها فى المستشفي حتى يُشبع قلبه بالنظر إليها.

انتهت الفحوص كلها وكانت كلها إيجابية كما توقع سالم، طارت حبيبة فرحاً وكان هو أشد فرحاً منها وكأنه والده، أسرعت هى إلى عمتها لتخبرها أنها وجدت المتبرع وأنه جاهز لإجراء العملية.. هللت فريدة وكبرت ثم سألتها:

- هو من عندنا بالعزبة.

لم ترد حبيبة، استغربت عمتها وسألتها:

- هو فى مشكلة يعنى مثلاً أهله مش موافقين ممكن نقنعهم.

بكت حبيبة وقالت:

- أرجوكي يا عمتي أنت الوحيدة اللى تملكي التصرف، الأمر أكبر منى وأنا مقدرش اسيب بابا يضيع منى.

ساورها القلق سألتها:

- فى أيه أتكلمي أنا أعصابي مش مستحملة.

دخل سالم الضبع وقال:

- أنا اللي ها تكلم، أنا جيت أسدد دين الفوارس، أكفر عن ذنب لم أفعله، دى إرادة ربنا، هو وحده العالم بالقلوب، أنا المتبرع يا

دكتورة فريدة، وأنا سعيد لذلك، أرجوكي مفيش داعي للرفض، طول عمري كنت بتمني أكون من عيلة الفوارس، لكن محدش بيختار أمه وأبوه، وعمى فارس أنا أفديه بعمري.

ساد الصمت المكان للحظات مرت على حبيبة كأنها دهر صارت اللحظات دقائق تمر بطيئة وعيون سالم وحبيبة على شفاه فريدة، بعض كلمات منها طوق نجاة للجميع.

تسمرت فريدة مكانها وشعرت أن السماء أمطرت على جسدها حتى أغرقته ولا تدري أتغسلها من ذكريات الماضي وتنبت بدلاً عنها أرض خصبة للحب والعطاء، أم لتغرقها مرة أخرى فى اختيار صعب على روحها وقلبها، لم يبق من الأحباب إلا فارس رحل الأخ والزوج، وإرادة اللّٰه أن تكون نجاته من خلال نبت من أفسد وقتل، رأت الحاج محمد أمامها، يهمس "ألم أقل لكِ إن سالم برئ لا ذنب له، أنه نبت صالح من أرض خبيثة لو تركتيه ها يموت فى أرضه، ضميه لأرضك وتولي رعايته لأجل ما يبقي شجرة تظلل وتحمي.. ولو ما تفعليها أنت من يفعلها" غاب وجه الحاج.. رنت كلماته فى أذنها، دارت بعينيها بين سالم وحبيبة.

بكت حبيبة وقالت:

- أرجوكى يا عمتى أنا بموت كل يوم من خوفى على بابا، أنا كرهت إني دكتورة لعجزي عن مساعدته.

لم يتمالك سالم نفسه وقال باكيا:

- أرجوكي يا هانم أنا ماليش ذنب فى كل اللى حصل، أرجوكي أعطيني فرصة أقف جنب عمى فارس.

قامت من مجلسها وقالت:

- بسرعة يا حبيبة جهزي فارس وسالم للعملية ومفيش داعي تقولي اسم المتبرع.

أجريت العملية بدون أن يعرف فارس من المتبرع إلا بعد إفاقته من البنج، قضي الاثنان الفترة العصيبة بعد العملية فى حجرتين متجاورتين وقد عافت كل النفوس الكلام والخوف يلجم الجميع، ولا اسمع إلا صوت دعوات بأن يزيح اللّٰه الغمة.

جاء الدكتور الذى أجري العملية وقد استدعوه من أكبر مركز للكلي بالقاهرة وفريق المساعد، زار الاثنين بيطمئن عليهما أثني كثيراً على سالم قائلا:

- أكيد أنت بتحبه قوي لدرجة أنك تتبرع به بكليتك، هو قريبك.

رد سالم:

- عمى.

رد الدكتور:

- بارك اللّٰه فيك أنت شاب متميز وشجاع خاطرت بحياتك من أجل مريض ربنا يكثر من أمثالك.

تحسنت حالتهما وسمح لهما الطبيب بالزيارة فكان الزوار يدخلون على فارس ثم يعرجون إلى سالم بدون أي كلام إلا حمد للّٰه على السلامة، إلا الحاج قناوي الضبع فمنذ السماح بالزيارة وهو لم يبرح سرير سالم يقرأ القرآن ويصلي ويدعو له، وهو لا يدري أيشفق عليه من ألمه النفسي أم الجسدي.

استرد فارس عافيته بعد عدة أسابيع وكذلك سالم، كانت العزبة كلها فى انتظار خروج فارس وعلقوا الزينات بالطرقات وأمرت فريدة بذبح الذبائح وجلب المنشدين للمدح، وفرش الموائد لإطعام كل الفقراء فى العزبة وما يجاورها أما سالم فقد جمع ملابسه ليترك المستشفي وهو لا يدري أيترك الحزن قلبه وتغرد الفرحة به أم أن مخالب الحزن ستظل

تنهش فى قلبه المكدود، عموما يكفيه أنه راضي عما فعل وأخيراً قد ارتاح ضميره بعد عذاب سنين.

سأل فارس عمته:

- كنتِ عارفه أن سالم هو المتبرع.

ردت:

- أكيد، سبحان اللّٰه أقداره ولا راد لقضائه.

عقب فارس:

- الحمد للّٰه دى رسالة من ربنا أنا شفت الحاج فى منامي وقال لي: أنا راضي عن سالم خذه تحت جناحك وأوعي تنسي فضله وأنسي أنه ابن حمدان الضبع.

احتضنته عمته وقالت:

- حمد للّٰه على السلامة يا غالي يابن الغالي.

قال:

- اللّٰه يبارك فيكِ يا عمتى، رجوعك للعزبة رجع معاه كل شئ جميل وعلى فكرة أنا كمان شفت الحاج فى المنام وقال لى "حطوا أيديكم فى أيد سالم لأجل ما ينتهي الشر من عزبة الفوارس، اهزموا الشيطان ودمروه بالعفو والتسامح.

ذهب فارس إلى سالم فى سكنه ليشكره، كان الحاج وهدان يجلس حائراً بالصالة، استبشر خيراً عند رؤيته وقال له:

- مرحباً بابن الأصول، أنا سمعت كتير عن عيلة الفوارس لكن لما شفتكم لقيتكم أكبر من أي وصف، سالم عنده حق فى حبه لكم.

قال فارس:

- اللّٰه يكرم أصلك، هو الحاج غريب عن البلد؟

- أنا الحاج وهدان، سالم كتم عندي فى القاهرة من ساعة ما ترك البلد، الحمد للّٰه ربنا استجاب لدعائي وقرب بينه وبينكم، طول عمره كان كاره لأعمال أبيه والرسول عليه الصلاة والسلام كان له صحابة من أبناء اعتي الكفار ولم يعيبهم ذلك أبداً.

- صلى اله عليه وسلم، أنا عارف يا حاج وهدان.. هو فين سالم.

- الحقه يا بني، ناوى يترك مصر كلها، رغم حبه لكم أكثر من نفسه ولو بعد عنكم ممكن يحصل له أي حاجة.

ذهب إليه فارس فى حجرته، وجده حزم حقيبته، سأله:

- على فين يا سالم.

رد بأسي:

- أي مكان بعيد ميعرفش حمدان الضبع.

- وأهلك وناسك.

- محدش هينسي إني ابن حمدان.

- أنت غلطان العزبة كلها بتتكلم عن شجاعتك ونقاءك وقلبك الطاهر وعن كل ما فعلته فى الفترة اللى فاتت.

قال وقد انفرجت أساريره:

- يبقى أنا أتولدت من جديد.

- وأنا ربنا كتب لي النجاة بفضل تضحيتك، تعالي معايا البلد كلها فى انتظارنا.

أحتضنه فارس ولم يصدق سالم نفسه، أحقاً هو الآن بين يدي فارس، عمره الحقيقي بدأ بهذه الضمة الحنونة من هذا الرجل الذى لا يجد أي كلام يصفه به إلا أنه "فارس".

اصطحبه فارس إلى السرادق المقام أمام دار الفوارس، سمحت فريدة بالزغاريد التى لم تزرهم منذ وفاة الحاج محمد، انقشعت السحابة القاتمة من سماء عزبة الفوارس، لم تستطع فريدة أنن تمنع دمعة كانت تحاول التعبير عن افتقادها لرفيق عمرها الساكن بين الضلوع "سلمان" لقد أوحشها كثيراً نظر إليها ولدها محمد وقال:

- بتبكي يا أمي، بابا وحشك، أنا كمان وحشني، لكن أوعي تخافي أنا راجل وأنتِ وأخواتي فى عينى من جوه.

رسمت البسمة على وجهها وقالت:

- أكيد عمري ما أخاف وأنت جنبي.

استمر الاحتفال حتى الفجر، مال الحاج وهدان على سالم وعرض عليه أن يطلب يد حبيبة من فارس، لكن سالم اعترض خشية أن يفهمه فارس خطأً، وحتى يعرض الأمر على حبيبة أولا ويعرف حقيقة مشاعرها تجاهه، اقتنع الحاج بوجهة نظره وبعد انتهاء الحفل سافر إلى القاهرة داعياً له أن يتم اللّٰه عليه فضله، أما سالم فلم يستطع الصبر حيث ذهب

إلى حبيبة صباحاً بالمستشفى، حاولت أن تداري ارتباكها حين رأته، سألته:

- خير فى أي مشاكل بالنسبة للعملية.

رد بحرج:

- لا أنا بخير الحمد للّٰه.

ساد الصمت بينهما ونبضات قلب سالم تعلو حتى ظن أن حبيبة تسمعها، قطعت الصمت قائلة:

- على فكرة أنا مدينة لك بعمري.

قال:

- لا يا دكتورة، أنا عمري كله ملك أيديكِ، كلمة منك ممكن تحييني أو تقتلني.

حاولت التماسك قائلة:

- دى فزورة ولا أيه.

رد:

- صحيح أنا محمي، لكن مش قادر ألاقي كلام أكسب به قضية عمري، أنا لو خسرتك حسيب مصر كلها، مش قادر أصبر أكثر من كده، أنا بحبك من ساعة ما كنت طفلة كنت ألمحك من بعيد، نجمة فى السماء لا أملك إلا التطلع إليها ببصري وكل يوم يمر عليّ أشعر أن سمائك تبتعد أكثر وأن الأرض تغوص بقلبي، لدرجة إني ساعة العملية دعيت ربنا أن يحقق أملي بالفوز بك، أو ينهي أجلي أثناء العملية ولما شعرت بنبض قلبي بعد العملية، لهث لساني شكراً لربي وأيقنت أن ربي واسع الفضل وقادر أن يحقق رجائي.

لم تجد حبيبة كلمات ترد بها وأحمر وجهها خجلاً، طأطأت رأسها، نظر إليها والدقائق نيران تحرق قلبه، حبس دمعتين ثم قال:

- أنا أسف لو كنت ضايقتك بصراحتي ومشاعري، كان من حقي أني أحاول.

هم بالخروج من الحجرة، انفرجت أساريرها وقالت:

- ياه دا أنت حساس ورقيق وشاعر مش محامي.

لم يتمالك نفسه من الفرحة فأمسك يدها وبدون أن يشعر أخذ يدور بها فى الحجرة وهو يقول:

- يعني أنت موافقة، دا أسعد يوم فى حياتي، ها روح لعمي فارس حالاً.

خرج مهرولاً وهى تنظر إليه وهى تضحك.

اتصل بالحاج وهدان وأخبره ورجاه أن يحضر سريعاً ليكون معه حين يتقدم لحبيبة، سعد الرجل بالخبر وأسرع إليه وفى نفس ساعة وصوله للعزبة، أخبر سالم دار الفوارس أنه يريد مقابلة فارس.

ذهب الحاج وهدان والحاج قناوي مع سالم إلى دار الفوارس كانت الأسرة كلها فى استقبالهم ما عدا حبيبة كانت تنتظر بحجرتها يلهث قلبها بالدعاء أن يوافق والدها عليه.

روت حبيبة لأمها ما كان من سالم فى المستشفى فوعدتها أن تتوسط لها عند أبيها كي يوافق وأوفت بوعدها وحثته ألا يقف فى وجه سعادة ابنته وذكرته أن سالم أثبت جدارته بكل السبل فعقب فارس:

- ربنا يفعل الصالح.

وبالطبع أخبر فارس عمته فريدة بالأمر.

بعد الشاي تحدث الحاج قناوي ثم الحاج وهدان فرد فارس.

- الرأي لعمتي أولاً.

قالت فريدة:

- الرأي للدكتورة حبيبة.

انفرجت أساريره وقال:

- أفهم من كده أن حضرتك وعمي فارس موافقين.

قالت فريدة:

- أنت تستحق كل خير وأي بنت تتمناك وأنت تشرف أي أسرة.

ذهبت فريدة إلى حجرة حبيبة وأتي فارس من بعدها فوجد حبيبة فى حضن عمته ووجهها يكسوه الخجل فعرف ما يريد معرفته وقال:

- يعني أقول مبروك.

أحمر وجهها أكثر ولم ترفع نظرها لوجه أبيها خجلاً.

فعقب هو:

- تعالي فى حضني الحمد لله إني عشت لأري بنتي دكتورة وعروسة.

رنت زغرودة من هنية وقالت فريدة:

- لو كنت أعرف أزغرد كنت عملتها.

هب الحاج وهدان واقفا عند سماعه للزغرودة واحتضن سالم قائلاً:

- ألف مبروك، قلت لك ربنا كريم.

عاد فارس إليهم وهنئ سالم قائلاً:

- لو كنت أنت أعطتني كليتك أنا هأعطيك ثمرة قلبي ونور عيني نوارة الفوارس كلهم.

رد سالم:

- حبيبة لو طلبت عمري مش كثير عليها.

رد فارس:

- ربنا يسعدكم يا بني.

قال فارس:

- بعد إذن حضرتك كتب الكتاب يكون الخميس الجاي.

ضحك فارس قائلا:

- بسرعة كده.

رد سالم:

- كفاية اللي ضاع من عمري أنا عشت سنين طويلة على أمل أن اليوم دا يجي.

كان فرحهم ليلة من ليالي العزبة، بدأت فيها حياة بلون البهجة بلا حزن أو غدر سمائها صافية كصفاء أهلها البسطاء.

دخلت فريدة بعد انتهاء العرس إلى حجرة الحاج محمد، نظرت لسجادة صلاته، رأته جالساً والمسبحة فى يده ووجه مضئ وتفوح منه رائحة المسك.. نظر إليها ورسم ابتسامة رضا على وجهه وقال:

- العدل محتاج لقوة تحميه زى ما كنتِ بتقولي.. لكن بالحكمة مش بالدم، اله ينور عليكي يا فريدة.

ابتسمت له ثم أختفي مع دخول فارس الحجرة قال:

- ياللا يا عمتي لسه مشاورنا طويل.

تشابكت أيديهم ووجدوا كل أبناء فارس ومحمد ابنها حولهم صنعوا دائرة كان فارس وفريدة وسطها ارتفع آذان الفجر مع ترنيمات الحمد والثناء على اللّٰه مع ألسنتهم جميعاً.